


أحمد عثمان

فى الشعر الجاهلى
واللغة العربية

مكتبة الشروق




في الشعر الجاهلي
واللغة العربية

مقدمة

منذ حوالى سبعين سنة ، كتب الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى » أنكر فيه صحة ما يُطلق عليه الشعر الجاهلى ، وقال إن كله منحول . بنى الدكتور طه حسين إنكاره على أساسين رئيسيين : عدم وجود اختلاف فى لغة هذا الشعر رغم انتماء قارضيه لقبائل مختلفة عن قريش ، بل أن لغة اليمن وجنوب الجزيرة مختلفة اختلافاً كبيراً عن لغة قريش ، فكيف يسود لسان قريش وقت ما كانت الحضارة فى اليمن ؟ . والأساس الثانى أن ذلك الشعر لم يعكس حياة الجاهلية بكل صورها ، خاصة الدينية . واستند الدكتور طه حسين فى بحثه على منهج الشك الديكارتى ، فيشك فى المسألة برمتها حتى يتيقن بعد البحث من صحة المسألة أو صحة عكسها .

أوضح بجلاء الدكتور على وافى فى ثنايا كتابيه « فقة اللغة » ، « علم اللغة » - الصادرين أوائل الأربعينات - ما استشكل على الدكتور طه حسين ، وأسهب فى الحديث عن صراع اللغات وأسباب انتصار واحدة على أخرى (*) ، وضرب أمثلة عديدة منها سيادة اللغة

* جاء فى « فقه اللغة » - دار نهضة مصر للطبع ص٨٢ ، ٨٣ : فقد فاتهم أن أقدم ما وصل إلينا من العصر الجاهلى لا يتجاوز أواخر القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد . وأنه فى ذلك

اليونانية لعدة قرون خلال سيطرة روما على العالم القديم ، وعدم سيادة اللغة التركية فى الشرق الأوسط رغم سيطرة استانبول لعدة قرون . فضلاً عن أن الشعر الجاهلى المنقول لا يتعدى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتلك كانت فترة انحطاط وتدهور وعدم استقرار باليمن ، فتناوب عليها الحكم الحبشى والفارسى والعربى .

أما أن يعكس ذلك الشعر الحياة الدينية للجاهلية فما الذى يجعل رواته وناقليه ـ حتى تدوينه زمن الدولة الأموية ـ يحرصون على نقل الوثنيات وحفظها ؟

ونضيف على كل ما سبق ، أنه قد تكلم كثير من الأقدمين على أن ليس كل الشعر الجاهلى صحيح النقل ، فمنه منحول ومنه مدسوس ، ولكن كيف ولماذا يكون كله ؟ وإذا ما اتبعنا نفس منهج الشك فيما وصل إليه الدكتور طه حسين وهو أن كل الشعر الجاهلى مدسوس ، وبحثنا المسألة على هذا الأساس ، هل سنجد ما يجعلنا على يقين أن كل ذلك مدسوس ؟

مع ذلك ، أثار الكتاب ضجة هائلة فى وقته ، واعتبره البعض طعناً فى تاريخ العرب واللغة العربية ، وحذر مما قد يؤدى إليه ذلك .

وفى أوائل الثمانينات ، نشرت الهيئة العامة للكتاب ـ وهى هيئة حكومية تثقل كاهل الحكومة ودافعى الضرائب كل عام برقمين

= العصر ، بل من قبله بأمد غير قصير كان قد تم للغة العربية التغلب على اللغات اليمنية القديمة ، فاستأثرت بالمحادثة والأدب والكتابة وأصبحت اللغات القديمة فى عداد اللغات الميتة .

من ملايين الجنيهات ـ لأستاذ الأدب الانجليزى بالجامعات المصرية الدكتور لويس عوض كتاباً ليس فى الأدب الإنجليزى ولكنه « مقدمة فى فقه اللغة العربية » .

جهد الدكتور لويس عوض نفسه خلال ما يقرب من خمسمائة صفحة ليصل إلى النتائج الآتية :

١ - العرب أمة حديثة نسبياً .

٢ - ينتمى المصريون إلى مجموعات عرقية مختلفة عن المجموعة العربية .

٣ - اللغة العربية إحدى فروع اللغات الهندو ـ أوروبية .

٤ - إن العرب حين نزلوا شبه الجزيرة إنما نزلوا على سكان أصليين كانوا فيها ، وهؤلاء إستطعنا تحديدهم بجحافل الهكسوس المطرودين من مصر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ولاشك أن هؤلاء الهكسوس والأماليك ـ كما تقول التوراة ـ نقلوا إلى شبه الجزيرة ماقبلوا من معتقدات دينية ورواسب لغوية .

٥ - اللغة العربية ليست عربية .

٦ - **﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾** ـ كلمة الصمد هنا كلمة مصرية قديمة تعنى الثالوث ـ ص ٢٣٧ .

تمت مصادرة الكتاب ، فتقدم وكلاء الدكتور لويس عوض للقضاء المصرى ضد مصادرة الكتاب ، فجاء فى حكم المحكمة ـ من ضمن ما جاء فى الحيثيات التى تقع فى حوالى سبع صفحات ـ : ولا يسع المحكمة والحال كذلك إلا أن تقول كلمتها فى هذا المؤلف الملىء بالتحريض على التناحر والفتنة ، ويحوى كثيراً من الهدم للأسس فى الكون والخلق والحياة والآخرة والدين الإسلامى الحنيف ـ الذى وسع كل شىء حتى المفرضين ـ وأن تقضى بتأييد أمر الضبط لهذا الكتاب الذى ينال من الإسلام ويهاجم القرآن ويشكك فى صحة ما جاء به ويتهجم على علماء المسلمين ويصفهم بما ليس فيهم . ٣١ / ١ / ١٩٨٤ م

ثم جاءت دار سينا للنشر ، والتى تقول عن كتبها « جمرة من التنوير » فأصدرت الكتاب ـ الجمرة ـ عام ١٩٩٣ .

ومنذ عدة أشهر ، نشرت مجلة « القاهرة » التى يرأسها الدكتور غالى شكرى النص الكامل لكتاب فى « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين .

وفى هذا الكتيب الصغير بين يديك ، يحاول الباحث أحمد عثمان أن يكشف للقارىء ما أسفرت عنه البحوث العلمية والحفريات الحديثة بخصوص اللغة العربية وعلاقتها باللغات الأخرى ، من هم الساميون ومن أين جاءوا .

عـادل المعلـم

فهـرست

الموضـــــوع	الصفحـــة

طه حسين

لم يلتزم منهجه عندما انكر الادب الجاهلى

قامت مجلة « القاهرة » بنشر النص الكامل لكتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » بعددها الصادر فى منتصف نيسان (أبريل) الماضى . كان هذا الكتاب قد أثار اعتراضات عديدة عند صدوره عام ١٩٢٦ ، مما اضطر الكاتب إلى إعادة نشره ـ بعد إجراء بعض التعديلات عليه ـ باسم « فى الأدب الجاهلى » . و« القاهرة » هى مجلة ثقافية شهرية تصدر عن هيئة الكتاب التابعة للحكومة المصرية ، ويرأس تحريرها الدكتور غالى شكرى .

والموضوع الذى أثار اعتراض غالبية الباحثين هو رفض الدكتور طه حسين قبول صحة نسب النصوص الأدبية الجاهلية إلى عصور ما قبل الإسلام . بل إنه جزم بأن هذا الأدب إنما هو مزور منحول ، قام بصياغته كتاب من العصر الإسلامى ونسبوه زورا إلى العصر الجاهلى . ولما كان

تدوين تاريخ الأدب الجاهلى ونصوصه لم يتم إلا منذ العصر الأموى ،فقد قرر الباحث المصرى عدم قبول صحة الروايات القديمة ، والاعتماد على منهج الشك فى إعادة تحقيق التراث العربى القديم . ولسوف نرى فيما بعد كيف أن طه حسين أخطأ الاستنتاج ، حيث لم يتبع منهجه الدراسى فى كل نقاط البحث ، وإنما قصرها على قبول صحة روايات بعينها دون الروايات الأخرى .

ويرفض طه حسين الاعتماد على روايات القدماء عند تحقيق مصادر الأدب الجاهلى ويلجأ إلى مذهب الشك الحديث كمنهاج فى بحثه :

« أريد أن أصنع فى الأدب المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث . والقاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تماما » .

ثم يقوم الباحث بعرض قضية الأدب الجاهلى :« بين يدينا مسألة الشعر الجاهلى نريد أن ندرسها وننتهى فيها إلى الحق . فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة ، والأمر عليهم سهل يسير . أليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار فى العراق والشام وفارس ومصر والأندلس على أن طائفة كثيرةمن الشعراء قد عاشت قبل الإسلام

وقالت كثيرا من الشعر ؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها ؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء الشعراء مقداراً من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم وتناقله عنهم الناس ، حتى جاء عصر التدوين فى الكتب وبقى منه ما شاء الله أن يبقى إلى أيامنا ؟ فنحن بين اثنين : إما أن نقبل فى الأدب وتاريخه ما قال القدماء ، وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث . أريد ألا نقبل شيئاً مما قال القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت ، وإن انتهينا إلى اليقين فقد انتهينا إلى الرجحان .

شككت فى قيمة الأدب الجاهلى وألححت فى الشك ، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . ولا أكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شىء ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى » .

وأول دليل يقدمه الباحث لإثبات صحة ما ذهب إليه هو ما يلاحظه

من أن غالبية الشعر والنثر المنسوب إلى العصر الجاهلى لا يعبر عن حياة العرب قبل الإسلام : « فأما الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين فيظهرلنا حياة غامضة جافة بريئة من الشعور الدينى والعاطفة الدينية :

أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلى كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ! » .

« وهذا الأدب لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين ، وهو بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية فى العصر الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه . فما تقرؤه على أنه شعر امرىء القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس فى شىء ، وإنما هو نحل الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاصين أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين . فهى إنما تكلفت واخترعت اختراعا ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه » .

إلا أن جوهر القضية التى أثارها طه حسين تعتمد على دلائل من اللغات العربية قديمة ، وكان الرأى الذى اتفق عليه الرواة هو أن العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية منازلهم الأولى فى اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى فى الحجاز . وهم يقولون إن القحطانية عرب منذ

خلقهم الله ، فطروا على العربية فهم عاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا فقد كانوا يتكلمون لغة أخرى هى العبرية أو الكلدانية ، ثم تعلموا لغة العرب العاربة ، فمحيت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة . وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم . وهم يروون حديثا يتخذونه أساسا لكل هذه النظرية ، خلاصته أن أول من تكلم بالعربية ونسى لغة أبيه كان هوإسماعيل بن إبراهيم . فالموطن الجغرافى للعدنانيين هو شمالى الجزيرة والحجاز ونجد ، أما موطن القحطانيين فهو جنوب الجزيرة العربية . وكان اعتقاد القدماء هو أن العدنانية أخذت عربيتها عن القحطانية، وعلى أن لغة أولئك وهؤلاء واحدة هى لغة القرآن .

ولكن عندما تم اكتشاف اللغات القحطانية فى العصور الحديثة ، من حميرية وسبئية ومعينية ، وتمكن الباحثون من قراءة هذه اللغات واستنباط نحوها وصرفها والمقارنة بينها وبين غيرها من اللغات السامية ، كانت النتيجة أن اللغة الحميرية شيء واللغة العربية الفصحى شيء آخر ، وأن الحميرية أقرب إلى اللغة الحبشية القديمة منها إلى العربية .

ويستنتج الدكتور طه حسين من ذلك وجود لغتين مختلفتين إحداهما فى الشمال وهى الفصحى والثانية فى الجنوب تمثلها النماذج الحميرية والسبئية والمعينية . ولهذا فهو يتعجب كيف أن شعر الجنوبيين فى الجاهلية كتب بلغة الحجاز الفصحى ؟ » .

أما أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون لغتنا الفصحى ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلى ، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى ، أو قل لغات أخرى . إذا لم تكن القحطانية قد استخدمت لغة عدنان عند إنتاج آثارها الأدبية ، فكيف جاء نظم شعراء قحطان وسجع كهانها وحديث خطبائها بالفصحى ؟ « أما أن اللغة العربية الفصحى التى نجدها فى . . . ما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبى وأصحابه (هى) لغة قريش ، فما نرى أنه يحتمل شكا أو جدالا » . فنحن مضطرون أمام الإجماع إلى أن نسلم بأن اللغة الفصحى إنما هى لغة قريش . وهذه ـ اللغة ـ الفصحى ـ كانت تفهم فى غير قريش من قبائل الحجاز ونجد ، بل وفى قبائل لم تكن عربية وهى القبائل اليهودية التى كانت تسكن شمال الحجاز . لغة قريش إذن هى

هذه اللغة الفصحى ، ولكن ما أصل لغة قريش ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت فى لفظها ومادتها وآدابها حتى انتهت إلى هذا الشكل

الذى نراه فى عصر النبى ؟ « كل هذه مسائل لا سبيل إلى الإجابة عليها الآن ... نكاد نيأس من الوصول فى يوم من الأيام إلى تاريخ علمى محقق لهذه اللغة قبل ظهور الإسلام » .

وهو يرد على أولئك الذين يحاجونه بقولهم إن الحميريين قد يكونوا اتخذوا لغة العدنانية كلغة أدبية لهم ينشئون فيها شعرهم ونثرهم الفنيين. فهو - وإن وافق على حدوث هذا بعد ظهور الإسلام حيث أصبحت الفصحى هى اللغة الرسمية - إلا أنه ينكر حدوثه قبل الإسلام .

« كانت اللغة العربية الفصحى إذن لغة أدبية للعرب وغير العرب بعد ظهور الإسلام ، فأما قبل الإسلام فقد نحب أن نتبين كيف استطاعت لغة العدنانيين أن تكون لغة أدبية للقحطانية . . . ونحن نعلم أن الحضارة التى من شأنها أن ترفع أمر اللغة وتفرضها على الشعوب كانت للقحطانية دون العدنانية . . . وكيف لم تفرض القحطانية لغتها على العدنانية ».

ويبين الباحث أن الأمر يتجاوز الشعر الجاهلى القحطانى إلى الشعر الجاهلى العدنانى نفسه ، فالرواة يقولون إن الشعر تنقل فى قبائل عدنان من ربيعة إلى قيس ثم إلى تميم التى ظل فيها إلى ما بعد الإسلام ، وعصر بنى أمية حين نبغ الفرزدق وجرير . ومع هذا فالرواة مجمعون

على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرا من تباين اللهجات . وكان من الطبيعى لو كان لكل قبيلة من القبائل العدنانية لغتها أن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات فى شعر هذه القبائل الذى قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة . ولكننا لا نرى شيئا من ذلك فى الشعر العربى الجاهلى .

« فأنت تستطيع أن تفرز هذه المطولات أو المعلقات التى يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلى الصحيح ، فسترى أن فيها مطولة لامرىء القيس وهو من كندة أى من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعنترة ، وغيرها للبيد ، وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لطرفة ، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة فيها شىء يشبه أن يكون اختلافا فى اللهجة أو تباعدا فى اللغة أو تباينا فى مذهب الكلام : البحر العروضى هو هو ، وقواعد القافية هى هى ، والألفاظ مستعملة فى معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعرى هو هو .

فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان ، لا فى اللغة ولا فى اللهجة ولا فى المذهب الكلامى ، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه

القبائل وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملا . ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى ، فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان ، يعترف القدماء أنفسهم بذلك كما رأيت أبا عمرو بن العلاء ، ويثبته البحث العلمى » .

كان اختلاف اللهجات حقيقة واقعة بعد الإسلام ، ومع هذا فقد استقام الشعر للقبائل كلها رغم هذا الاختلاف . ذلك أن القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها ، وتقيدت بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت في لغتها الخاصة ، أى أن الإسلام قد فرض على العرب جميعا لغة عامة واحدة هى لغة قريش .

هل سادت لغة قريش ولهجتها فى البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها فى الشعر الجاهلى والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ وهنا يقول طه حسين : « إنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة » . ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكد تتجاوز الحجاز ، فلما جاء الإسلام وعمت هذه السيادة سار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الدينى والسياسى جنبا لجنب » .

وينتهى طه حسين إلى إصدار قراره النهائى فى قضية الشعر الجاهلى :

« من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل : أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا ديانتهم ولا حضارتهم ، بل لا يمثل لغتهم - أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام ؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن فى هذا » .

ومما لا شك فيه أن الدكتور طه حسين - والذى كان عميدا للأدب العربى - قد أثار قضية جوهرية بالنسبة لدراسة تاريخ اللغة العربية ، ومما لا شك فيه كذلك أنه أخطأ فى النتيجة التى توصل إليها من أن الأدب الجاهلى قد تم تزويره فى العصر الإسلامى . وحتى نتمكن من معرفة كيف أخطأ طه حسين ، لابد لنا من التعرف على تاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ اللغة العربية منذ نشأتها .

هل جاء إبراهيم
من اور الكلدانيين
ام من مديان الحجاز ؟

كان طه حسين محقا فى استخدام المنهج العلمى الحديث عند دراسته لتاريخ الأدب العربى وتاريخ اللغة ، وكان طه حسين محقا عندما داخله الشك فى أحاديث الرواة الأوائل فى ما يتعلق بالتاريخ القديم . ومع هذا فإن طه حسين لم يكن محقا فى النتيجة التى وصل إليها من إنكاره لما وصل إلينا من الأدب الجاهلى .

وأخطأ طه حسين كذلك عندما قال بأن ورود قصة إبراهيم وإسماعيل بالتوراة والقرآن - دون المصادر التاريخية - لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى . وصحيح أنه لم يرد أى ذكر لإبراهيم أو إسماعيل - أو لأى من الأنبياء الأخرين - فى المصادر التاريخية ، ليس هناك سوى محمد

الرسول الذى نعرفه من مصادر التاريخ ، حيث إنه عاش فى القرن السادس الميلادى وتعامل مع اليهود والفرس الذين نقلوا أخباره ، كما سافر صحابته إلى خارج الجزيرة العربية وتحدثوا عنه . أما باقى الأنبياء - بما فيهم عيسى المسيح - فلا دليل تاريخى يتحدث عنهم . ومع هذا فنحن لا نستطيع إنكار وجودهم لأن لدينا العديد من الدلائل المتواترة التى تشير إليهم .

ولا شك أن تقسيم العرب إلى عرب عاربة فى الجنوب وعرب مستعربة فى الشمال لا يمت لتاريخ العرب بشىء ، وإنما أول ما أطلق اسم العرب كان على أهل الحجاز ثم استخدم هذا الاسم بعد ذلك للدلالة على جميع سكان الجزيرة العربية . ولسوف نرى تفاصيل هذه الأحداث فى ما بعد ، إلا أن ما يهمنا الآن هو توضيح كيف وقع القدماء فى هذا الخطأ .

فقد علم العرب من رواياتهم القديمة أنهم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، ولما كان الكثير من الرواة الأوائل إما من أهل الكتاب الذين أسلموا أو من الذين قبلوا رواية هؤلاء على علاتها ، فقد حاول الرواة التوفيق بين ما جاء فى المصادر العربية من قصص وما ورد فى كتب أهل الكتاب ، وخاصة فى التوراة . والتوراة تقول إن إبراهيم ولد فى

بلاد الكلدانيين، فلابد وأن تكون اللغة الكلدانية هى لغته الأصلية ، مما يترتب عليه أن الكلدانية كانت هى كذلك لغة إسماعيل جد العرب . ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن يكون إسماعيل وسلالته قد تعلموا اللغة العربية بعد هذا من أقوام أخرى كانت تسكن الجزيرة .

وبينما تقول القصة القرآنية إن إبراهيم قد هاجر من وطنه الأصلى بعد أن اختلف مع أبيه وقومه بسبب عبادتهم الأصنام ، فإن التوراة تتحدث عن سفر إبراهيم من بلاده فى صحبة أبيه . يذكر سفر التكوين - أول كتب التوراة الخمسة - كيف أن أبرام (إبراهيم) كان هو الحفيد العاشر لنوح من ابنه سام ، وكيف أن موطن ميلاده كان « فى أور الكلدانيين » ، غربى نهر الفرات فى سومر بجنوب أرض الرافدين . وبحسب هذه القصة التوراتية فإن إبراهيم هاجر من بلاده أولا مع أبيه تارح ولوط ابن أخيه وسارة زوجته « فخرجوا معا من أور الكلدانيين . . . فأتوا إلى حاران (بشمال سورية) وأقاموا هناك . . . ومات تارح فى حاران » . وبعد موت أبيه أخذ إبراهيم عائلته « وخرجوا (من حاران) ليذهبوا إلى أرض كنعان . فأتوا إلى أرض كنعان . . . إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة (شمال مدينة نابلس) » .

وبالرغم من أن الرواية التوراتية تشير إلى أن إبراهيم ولد فى مدينة

أور الكلدانية ، إلا أنها - فى مكان آخر - تجعل موطنه الأصلى هو مدينة حاران بشمال سورية . فقد ورد بالإصحاح الرابع والعشرين لسفر التكوين أن إبراهيم لما شاخ قال لعبده : « ضع يدك تحت فخذى . فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى إلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحاق » ولم يذهب العبد إلى أور الكلدانيين بجنوب العراق وإنما ذهب إلى حاران السوريين عند منابع نهر الفرات .

بل إن القصة التوراتية نفسها تعود فتشير إلى أن المديانيين كانوا من قوم إبراهيم ، فقد ورد بالإصحاح الخامس والعشرين من نفس سفر التكوين أن إبراهيم أخذ ، بخلاف سارة وهاجر « زوجة اسمها قطورة . فولدت له زمران ويقشان ومديان وبشباق وشوحا » . وتشير الروايات التوراتية إلى أن غالبية سلالة إبراهيم - عدا أبناء إسرائيل - كانت تنتمى إلى مديان (مدين) .

وبينما تذهب بعض المراجع إلى اعتبار أن « مدين » تمثل موقعا جغرافيا ، يعتبرها البعض الآخر دلالة على قوم من الناس ، فقد ذكر القرآن - فى سورة طه - ما يفيد أن هذا الاسم كان يطلق على قوم من الناس هم أهل مدين ، إلا أنه فى موقع آخر من سورة القصص قد أورد ما يدل على أن « ماء مدين » يمثل موقعاً جغرافيا « ولما ورد ماء

مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » .

بل إن هناك ما يشير إلى أن المديانيين كانوا من قوم إسماعيل بن إبراهيم ، فقد ورد فى الإصحاح الثامن من سفر القضاة إن « مديان » كانوا « إسماعيليين » . إلا أن التوراة تستخدم « مديان » كذلك للدلالة على موقع جغرافى ، حيث قيل إن موسى تزوج من ابنة كاهن مدين - والذى تسميه التوراة « يثرون » - كما قيل إن أهل مدين كانوا من أتباع موسى الذين ساروا معه عند خروج بنى إسرائيل من مصر .

ولا شك أن المصادر التوراتية تجعل أهل مدين من سلالة إبراهيم وأتباعه ، ولكن أين عاش المديانيون ؟ تقول أقدم المصادر التاريخية والجغرافية التى ترجع إلى بداية العصر المسيحى ، إن اسم « مدين » كان يطلق على مدينة تقع فى شمال الجزيرة العربية شرقى خليج العقبة ، وقد ورد هذا فى كتابات « يوسيفوس » المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الميلادى الأول ، وكذلك فى كتب المؤرخين من اليونان والرومان . كما جاء ذكر مدين فى كتابات ابن إسحاق الذى قال إن الرسول أرسل حملة إلى هناك بقيادة زيد بن حارثة ، وذكر هذه المدينة أيضا بعض الشعراء العرب الذين قالوا بأنها كانت موطنا للرهبان .

ويبدو أن مدينة مدين هذه كانت هى كل ما تبقى من أرض مدين

القديمة ، فهناك من المصادر القديمة ما يدل على أن اسم مدين كان فى البداية يدل على كل المنطقة الواقعة شرقى خليج العقبة فى شمال الحجاز . بل هناك ما يجعل أرض مدين فى صحراء سيناء المصرية . فالقرآن يذكر - فى سورة طه - أن موسى وبنى إسرائيل كانوا « فى جانب الطور الأيمن » عندما أعطوا ميثاقهم ، والطور فى سيناء ، وإن المديانيين كانوا من أتباع موسى .وتجعل النصوص التوراتية إقامة أهل مدين فى مناطق عديدة ، بينما هو سيناء فى بعض المصادر، فهو جنوب فلسطين وشرق الأردن أو شمال الجزيرة العربية فى مصادر أخرى . كما أن منطقة « فاران » التى تقول التوراة إن إسماعيل عاش بها فترة من الزمن تبين أنها نفس منطقة « وادى الفيران » الذى يقع حول سرابيط الخادم بسيناء . ولقد أظهرت الكشوف الأثرية التى تمت أخيرا فى سيناء - والتى قام بها الأثريون الإسرائيليون أثناء الاحتلال الإسرائيلى لشبه الجزيرة المصرية بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ - أن سيناء كانت معمورة بالسكان منذ ثلاثين ألف عام . وعثر أوفير بار يوسف ، وهو أستاذ الحفريات بجامعة هارڤارد الأمريكية ، على المئات من المواقع الأثرية التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ . كما تبين أن الأقوام التى كانت تسكن فى سيناء هى نفس الأقوام التى سكنت شمال الجزيرة العربية منذ آلاف السنين . وعثر الأثريون على طريق يمتد من

شمال سيناء ويصل حتى جنوب البحر الميت وشمال الحجاز ، وبه نقوش مصرية ترجع إلى بداية التاريخ المصرى .

يتضح من هذا أن اسم مدين كان يطلق أيام إبراهيم على أهل شمال الجزيرة العربية الذين سكنوا كذلك شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين ، ولسوف نرى أن نفس هذه الأقوام هى التى أطلق عليها فى ما بعد اسم « العرب » .

وتختلف الرواية التوراتية كذلك مع القصة القرآنية بخصوص الموقع الذى استقرت به هاجر مع ولدها إسماعيل ، فهو ليس عند ماء زمزم بمكة وإنما عند ماء بئر سبع بفلسطين . فقد ورد فى القصة التوراتية إنه حدثت مجاعة فى أرض كنعان فأخذ إبراهيم سارة زوجته ولوط ابن أخيه وسافر إلى مصر ، ثم عاد منها بعد ذلك ومعه خيرٌ وفيرٌ ، كما جلب إبراهيم معه من مصر « هاجر » الجارية التى أعطاها الملك المصرى هدية إلى سارة زوجته . ودخل إبراهيم على هاجر وأنجب منها إسماعيل ، كما ولدت سارة ابنها إسحاق : « ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق . . . فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت فى برية بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد

تحت إحدى الأشجار . ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس ، لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر ، لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران (فى سيناء) ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

وهناك بعض الاختلاف بين هذه القصة وما ورد فى الروايات الإسلامية ، فبحسب ما جاء فى كتاب « قصص الأنبياء » لابن كثير ، نقلا عن البخارى ، أن أم إسماعيل لما نفد ما كان معها من الماء : « جعلت تنظر إليه (طفلها) يتلوى . . . فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحدا . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها (قميصها) ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، فعلت ذلك سبع مرات . . . فلما

أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ، تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غوث . فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه . . . حتى ظهر الماء . . . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف » .

ومما لا شك فيه ان كُتّاب التوراة من يهود بابل - بعد مضى تسعة قرون من عصر إبراهيم - قد تأثروا إلى حد كبير بالفكر البابلى ، مما جعلهم يحاولون نسبة أصل العبرانيين إلى هذه البلاد اعتقاداً منهم بأنهم موطن الحضارة الأولى للبشرية . ومن السهل لمن يقارن بين قصة الخلق وقصة الطوفان كما وردتا فى سفر التكوين أن يلاحظ التشابه الذى يصل أحيانا إلى درجة التطابق مع ما ورد فى ملحمة جلجامش البابلية . ولذلك فنحن نرى أن كتبة التوراة جعلوا بابل هى أول المدن التى بناها الإنسان ، بينما نحن نعلم علم اليقين أن العديد من المدن فى فلسطين وسورية وفينيقيا ومصر ، قد سبقتها بمئات السنين. فقد ورد الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين أن أبناء نوح بعد الطوفان « قال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللبن (الآجر) مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين . وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ، ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما . وقال الرب هوذا

شعب واحد ولسان واحد لجميعهم . . . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض ، فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دعى اسمها بابل » .

وعلى هذا فإن الفقرة التى وردت فى سفر التكوين لتنسب إبراهيم إلى مدينة أور الكلدانية لا يمكن اعتبارها سندا قويا على صحة هذه الرواية ، فكما رأينا فإن القصة التوراتية نفسها قد ذكرت مواطن أخرى لإبراهيم غير هذه المدينة . كما أن إقامة جميع سلالة إبراهيم فى منطقة واحدة هى أرض مدين ، يعتبر قرينة قوية على انتمائهم إلى هذه الأقوام ، ومن الطبيعى أن يعود الأبناء إلى موطن أبيهم الأصلى . بل إن التوراة نفسها تؤكد أن إبراهيم ـ بعد ميلاد إسحاق ـ ترك سارة وحدها فى حبرون (الخليل) وذهب هو ليعيش فى مدين . وما تؤكده كل هذه الروايات هو أن إسماعيل عاش فى مدين وبالطبع كان يستخدم لغتها التى ـ كما سنرى بعد ذلك ـ كانت هى اللغة العربية القديمة .

لماذا عجز طه حسين ومعارضوه
عن الرد على سؤاله ؟

بالرغم من أن المعارضين أسرعوا بالرد على طه حسين عام ١٩٢٦ - حتى قبل صدور كتابه « فى الشعر الجاهلى » . إلا أنهم جميعا عجزوا عن الإجابة عن السؤال الأساسى الذى أثاره الدكتور ، والذى تعلق بأصل اللغة العربية الفصحى .

وحتى نستطيع إدراك هذا العجز علينا أولا تحديد القضية التى طرحها طه حسين ، ثم استعراض الردود التى أجاب عليه بها خصومه . وكانت النتيجة التى توصل إليها طه حسين فى الشعر الجاهلى، هو أن الأدب الذى نعرفه الآن على أنه أدب جاهلى ، ليس كذلك . والذى جعله يصل إلى هذا الاستنتاج الغريب ثلاثة أسباب :

١ - الأدب الجاهلى لا يعبر عن حياة الجاهليين ، وهذه النقطة ليست بذات أهمية كبرى ، فمن الطبيعى ألا يحفظ المسلمون وألا يرددوا

أشعارا وثنية تنطوى على إساءة لمعتقداتهم الدينية الجديدة .

٢ ـ أن أدباء قحطان الجنوبيين قد نظموا شعرهم فى العصر الجاهلى باللغة الفصحى ، بينما كانت لهم لغة أخرى قبل أن يوحد الإسلام اللغة . وكما سوف نرى ، فقد تهرب الخصوم من الرد على هذا السؤال .

٣ ـ أنه حتى بالنسبة للأدب الجاهلى الذى أنتجته قبائل الشمال ـ من غير قريش ـ قبل الإسلام ، فقد جاء منظوما بالفصحى ، التى هى لغة قريش ، وما هذا السبب إلا فرع من السبب السابق ، حيث إنه يتعلق باختلاف لغات قبائل الشمال قبل الإسلام عن العربية الفصحى .

وكما نرى فإن جوهر القضية التى طرحها طه حسين يتعلق بماهية اللغة الفصحى ، وبمدى انتشارها فى الجزيرة العربية قبل الإسلام . ولأن طه حسين قد سلم بأن الفصحى كانت لهجة الكلام لدى قريش ، فمن الطبيعى له أن ينكر إمكانية أن تكون هى نفسها لغة الأدب لكل القبائل قبل الإسلام .

ومن المؤكد أن طه حسين بمنهجه فى البحث التاريخى للغة العربية وآدابها ، قد طرح أسلوبا جديدا فى الدراسة لم يعهده دارسو الأدب العربى من قبل . والسبب فى هذا هو الطريقة الفريدة التى تلقى بها هذا الفلاح المصرى علومه .

فقد كان طه حسين من أوائل الطلاب الذين جمعوا بين الدراسة الأزهرية القديمة ، ودراسة العلوم المدنية فى الجامعة المصرية . بل إنه سافر فى بعثة إلى فرنسا لاستكمال دراسته هناك . فهو قد تعلم تاريخ الأدب العربى ولغته فى الأزهر ، قبل أن يتعلمه على يد المستشرقين فى جامعة القاهرة الأهلية وفى باريس . وكانت الجامعة المصرية - التى تعلم بها - مؤسسة أهلية عندما تكونت فى سنة ١٩٠٨ ، وتم اختيار الدكتور طه حسين لتدريس الأدب العربى بها عندما ألحقت بوزارة المعارف عام ١٩٢٥ ، حيث أصبح أستاذا للأدب العربى بكلية الآداب .

وقبل أن نستعرض ما قاله خصوم طه حسين ، نجد أنه من الأفضل لنا التعرف على ما قاله واحد من الباحثين المهمين ، تأييدا لموقف الدكتور طه حسين ، ألا وهو الفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوى .

حاول الدكتور بدوى أن يبرر خطيئة طه حسين بأن يبين أن الشك فى صحة نسب الشعر الجاهلى ليس شيئا جديداً ، وإنما هو قضية قديمة سبق أن أثارها رجال الأدب العربى من مئات السنين . فهو - اعتمادا على ما أورده « محمد شاكر » وهو أحد تلامذة طه حسين المعارضين لأفكاره - يقول فى مقدمة كتابه « دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى » ، الذى صدر فى بيروت عن دار العلم للملايين (صفحات ٥ - ١٤) :

« ما قاله (طه حسين) عن انتحال الشعر الجاهلى ، وفساد رواياته ، وما أضيف إليه أو حذف منه ـ هو كلام سبق أن قاله وأشبع القول فيه علماء الأدب واللغة القدماء منذ القرن الثانى للهجرة وخصوصا فى القرنين الثالث والرابع . ويكفى المرء أن يفتح الصفحات الأولى من كتاب « طبقات الشعراء » لمحمد بن سلام الجمحى ليقرأ فيه ما يلى :

أ ـ « وفى الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لا خير فيه » .

ب ـ « وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه : محمد بن إسحاق بن يسار . . . فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أتينا به فأحمله » .

د ـ « جاء الإسلام فتشاغلت عنه (أى الشعر) العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته » .

هـ ـ « قال ابن سلام : فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ذلك، فزادوا فى الأشعار التى قيلت » .

و ـ « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد

الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الأشعار » . ويستنتج بدوى من هذه النقاط ، كما استنتج الجمحى من قبله : أن الكثير من الرواة كانوا يصنعون الشعر وينسبونه إلى كبار الشعراء فى الجاهلية وصدر الإسلام ، أو كانوا ينحلون شعر الرجل غيره أو ينحلون الرجل غير شعره ، ويزيدون فى الأشعار من عندهم ، وأن شعراء الجاهلية حمل عليهم ـ أى نسب إليهم كذبا ـ الكثير من الشعر . وواضح أن عبد الرحمن بدوى ـ عندما حاول الدفاع عما قاله طه حسين من أن الشعر الجاهلى منحول ـ إنما قد ساق من الدليل ما يثبت خطأ طه حسين فى هذا الاستنتاج . فبينما ينكر طه حسين وجود الشعر الجاهلى ، فإن الجمحى وابن سلام يؤكدان وجوده ، إنما يقولان بعدم صحة نسبه لقائليه فى بعض الأحوال . ذلك أن اختلاط بعض الشعر ، لا ينفى وجود الشعر الجاهلى نفسه .

أما الذين ردوا على طه حسين فكانوا حوالى عشرة ، تصدوا للكتاب فور صدوره من بينهم عباس فضلى فى مقال نشره فى جريدة السياسى والأمير شكيب أرسلان فى مقال بعثه من روما ونشرته جريدة كوكب الشرق والشيخ محمد الخضرى فى عدة محاضرات تم نشرها فى كتاب ، إلا أن أعلاهم صوتاً كان هو الأديب المعروف مصطفى صادق الرافعى الذى كتب عدة مقالات فى هذا الموضوع بجريدة كوكب الشرق ،

نشرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان « تحت راية القرآن » . يقول الرافعى فى كتابه (ص ١٤٦ ـ ١٤٩) : « إن أستاذ الجامعة ليعلم علما لا يداخله الشك الذى يتباهى به أن كتب السلف لم تنته إلينا بجملتها ولا انتهى أكثرها ولا ما لا يقال فيه إنه كثير . . . وقد وضع ابن سلام كتابا فى طبقات فحول شعراء الجاهليين لا يعرف إلا اسمه . أفتحسب راوية مثله يضع فى أوائل القرن الثالث (الهجرى) كتابا فى أسماء هؤلاء الفحول ، وليس بين يديه من شعرهم الكثير الصحيح قد غربل ونخل ونقى منه الموضوع والمنحول وما تقولته العشائر بأهوائها وما دسه الرواة بسبب من الأسباب ؟ نحن لا ندفع فى أن يكون فيما يعزى إلى الجاهلية شعر محمول على أهلها حملا وشعر قد نُحلهم إياه من كلام الشعراء المغمورين . . . فلا يجوز لكائن من كان بين قطبى الأرض أن يثبت أو ينكر ويزيد أو ينقص إلا بنص عن المتقدمين ، لأن هذا العلم لا يمكن أن يستقيم على اتباع الظن » .

وكان يكفى أن يقرأ عبد الرحمن بدوى هذا الكلام حتى يكفى نفسه محاولة الدفاع عن استنتاج طه حسين . فلم ينكر الرافعى ـ الذى اعتمد على نفس رواية ابن سلام ـ وجود شعر جاهلى منحول ، وإنما الذى نفاه هو ما ذهب إليه الدكتور طه من أن « كل الأدب الجاهلى » منحول ومزور .

إلا أن الرافعى لم يقف عند هذا الحد وإنما راح يهاجم منهج طه حسين نفسه : « من أقبح ما فى كتب الدكتور طه حسين أنه . . . يريد أن يأخذ النشء بذلك اتباعا لمذهب ديكارت الفلسفى الذى يقضى على الباحث بالتجرد من كل شىء عندما يبحث عن الحقيقة . . . وهذا لعمرى هو منتهى الجهل . فإن هناك فرق بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية وبين البحث عن حقيقة أدبية تاريخية قائمة على النص وقول فلان وفلان » . (تحت راية القرآن ، ص ١٥١ ـ ١٥٢) .

ويدخل الرافعى بعد ذلك فى صلب الموضوع الذى أثاره طه حسين : وكان الشيخ محمد بك الخضرى ـ المفتش بوزارة المعارف حينذاك ـ هو الذى تولى مناقشة هذه القضية فى عدة محاضرات تم نشرها فى كتاب بعنوان « طه حسين فى الشعر الجاهلى » . ويدخل الخضرى فى صلب الموضوع الذى أثاره طه حسين (ص ١٦٤) :

« نستطيع أن نسلم أنه كان هناك خلاف بين لغة حمير وعدنان . . . مع هذا التسليم نقول له : إن هذا لا يفيدك شيئا ! لأن القحطانيين الذين وصل إلينا شعرهم ، إنما هم من أبناء سبأ بن يعرب ثم من كهلان (الذين) تركوا بلادهم قبل الهجرة بأكثر من قرنين بعد سيل العرم ونزحوا إلى الشمال : منهم اللخميون ملوك الحيرة ، والغسانيون

ملوك الشام ، وسكان يثرب وغيرهم من قبائل الأزد ، وممن هاجر بطون طيء سكان الجبلين أجا وسلمى ، وبطون من كندة الذين ملك بنوهم على قبائل من عدنان . . . أفليس هذا كافيا لأن تتمازج اللغات وتتحد الألسنة ؟ وامرؤ القيس الذى دار الحديث عليه كان حفيدا لحجر بن عمرو أما حمير التى أقامت ببلادها من ظفار وصنعاء وما جاورها ، فهى التى قال عنها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن لساننا ، ولا عربيتهم عربيتنا » .

ويبدو أن الخضرى قد أدرك صعوبة استبعاد مشكلة الخلاف فى اللغة فى العصر الجاهلى التى أثارها طه حسين ، ولكن نظرا لعدم معرفته للأدلة المتعلقة بهذا الموضوع ، فهو قد لجأ إلى تفسير تشابه الشعر الجاهلى ، بأن ما وصلنا منه لم يأت إلا من القبائل التى تعلمت لهجة قريش . إلا أن الخضرى وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الرافعى عند تفسيره لماهية اللهجة على أنها لكنة :

« لا ندرى كيف يظهر فى الشعر تباين اللهجات ؟ فإن اللهجة كما قدمنا إنما هى ما يرجع إلى الأداء والشىء الواحد قد يؤدى بلهجات مختلفة وهو هو فى حركاته وسكناته . . . وقد أحادث مغربيا فلا أكاد أفهمه لأن له لهجة خاصة ، ولكنه لو كتب إلى ما تحدث به أو أنشده لم

أجد أدنى صعوبة فى فهمه ، ولوجدته مماثلا للفتى لا يمتاز عنها لا فى كلماته ولا نحوه ولا صرفه . فقوله بعد ذلك : « تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع بدون أن تشعر بشىء يشبه أن يكون اختلافا فى اللهجة » ، كلام بعيد عن التحقيق العلمى ، بل هو ليس بمفهوم ، إذ كيف أشعر باختلاف اللهجة وأنا أقرأ أشعارهم ؟ إنما أشعر بها إذا أنشدها قائلوها واستمعتها منهم ، فإنى حينئذ أشعر بما تتخالف فيه قيس وربيعة وتميم من اللهجات » . (طه حسين فى الشعر الجاهلى ، ص ١٦٨) .

وكما هو واضح فإن أحدا لم يرد على النقطة الأساسية التى أثارها طه حسين ، والتى تتعلق باختلاف لغات القبائل العربية قبل الإسلام .

ولقد عثر الأثريون على نماذج عديدة من اللغات المكتوبة فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، ومن الواضح أن الخلاف بينها لم يكن مجرد خلاف فى اللكنة - أى فى طريقة النطق - ولكنه خلاف فى اللغة ، وإن كان بينها تشابه . ويكون علينا محاولة التعرف على سكان جزيرة العرب فى العصور القديمة وأنواع اللغات التى عرفوها ، قبل الإجابة على سؤال طه حسين .

ظهور ملكات العرب
على حدود سورية ونهر الفرات

ظل التاريخ القديم للعرب مجهولا فى معظمه ، حتى بدأت أعمال الحفر والتنقيب ـ خلال قرننا هذا ـ تنبش أرضنا وتكشف عن آثار الماضى السحيق . وكان للتقدم التكنولوچى الحديث أثره فى إمكان التعرف على مجارى الأنهار القديمة ومواقع المدن المدفونة تحت أطنان من الرمال ، لآلاف من السنين .

ورغم هذا فما يزال تاريخ الأجداد لا يشغل بال مفكرينا ، الذين يفضلون الاكتفاء بالروايات والأساطير عن العثور على البقايا الأثرية وتمحيص أدلة التاريخ . ولا زلت أذكر كيف كتب الأديب الراحل يوسف السباعى مقالا فى مجلة « آخر ساعة » ـ وكان رئيسا لاتحاد الكتاب المصريين كما أصبح وزيرا للثقافة ـ يعتذر فيه لتأخره فى لقاء الشاعر نزار قبانى عند زيارته للقاهرة . قال السباعى إن له أصدقاء يأتون من

« آخر الدنيا » من أمريكا ويتحملون المشقة ، حتى يزوروا متحف القاهرة ، بينما هو نفسه - السباعى - لم يزر المتحف رغما عن أنه يسكن بجانبه ، حيث لم كن هناك من يشجعه على القيام بهذه الزيارة . وبالطبع فإن السباعى وجد من يشجعه لزيارة الشاعر نزار ولكنه مات دون أن يزور متحف القاهرة . وموقف السباعى هذا - للأسف - لا يزال هو موقف الغالبية العظمى من مثقفينا العرب .

لهذا فلم يكن غريبا عندما قام الدكتور لويس عوض بعمل دراسة عن التاريخ القديم للعرب ، أن يكتفى بترجمة بعض المصادر القديمة دون أن يعى حتى مدلول ما ينقله . قد وصل الدكتور لويس عوض فى كتابه عن « فقه اللغة العربية » الذى نشر عام ١٩٨٠ ، إلى نتيجة تختلف تماما مع ما أصبحت الدلائل الحديثة تؤكده . فهو قد استنتج أن العرب إنما هم « أمة حديثة نسبيا إذا قيست بما جاورها من الأمم » ويقول تأييدا لرأيه : « نحن عادة نؤرخ للحضارات ببداية عصر التدوين واستعمال الأبجدية .

وبهذا المقياس يجب أن نبدأ تاريخ الحضارة العربية الشمالية والحضارة العربية فى وسط شبه الجزيرة - بما فيها الحجاز - ببداية القرن الثانى ق . م ، أى بنحو ثمانمائة سنة قبل ظهور الإسلام ، أما تاريخ

الحضارة العربية الجنوبية (أى سبأ ومعين وقتبان) فيبدأ نحو ٨٠٠ « ق.م » (ص ٢٥) » .

ويحاول لويس عوض أن يبين الأسباب التى دعته إلى الوصول إلى هذه النتيجة الغريبة : « لم يرد للعرب ذكر فى التاريخ المصرى القديم . . . كذلك لم يرد للعرب ذكر فى أى نص من نصوص حضارات الشرق القديم . . . قبل القرن التاسع ق . م . فأول ذكر لهم يشير إلى « ملكات العرب » ، وهو يدون أول ظهور لهم على مسرح التاريخ فى منطقة الشرق الأوسط ،ورد فى نص شالما نصر الثالث ملك أشور (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق . م .) . . . وهم قبائل مؤتلفة من البدو الرحل فى شمال شبه الجزيرة العربية . . . ومع ذلك فالمعلومات عن شمالى شبه الجزيرة العربية ووسطها نادرة قبل القرن الثانى ق . م . ويبدو أن حضارتها فى الألف الأولى ق . م . متخلفة عن حضارة جنوب شبه الجزيرة حيث كانت مملكة سبأ ومعين وقتبان ، وعن حضارة الهلال الخصيب الملتف من العراق إلى الشام الكبير على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، كما يبدو أنها كانت مجرد حاجز طبيعى بين حضارات بابل وأشور وفينيقيا وجنوب شبه الجزيرة » (ص ٢٤) .

كانت محاولة الدكتور طه حسين لتحديث الأدب والفكر العربى عن

طريق اتباع المنهج العلمى الحقيقى فى الدراسة هى آخر محاولة فى السلسلة التى بدأها رجال الأدب العربى من أمثال رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . وبانتكاس محاولة طه حسين عام ١٩٢٦ توقفت هذه المحاولة التجديدية . وكان طه حسين نفسه مسئولا - إلى درجة كبيرة - عن هذه النهاية الفاشلة لمحاولته ، إذ أنه أدخل أطروحات لها طابع دينى فى المناقشة ، بدلا من استخدام منهجه فى إطار أدبى خالص . وبينما ترك طه حسين الأدب العربى وتاريخه بعد ذلك واتجه إلى الكتابات القصصية ، فقد ظهرت مدرسة جديدة يتزعمها أساتذة الأدب الانجليزى ، انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت هى المسيطرة على التفكير الأدبى فى بلادنا .

وكان لويس عوض واحداً من أعضاء هذه المدرسة الجديدة ، استطاع بفضل دراساته ونقدياته التأثير على عدد كبير من أدباء الجيل الجديد . إلا أن أستاذ الأدب الانجليزى لم يلتزم منهج البحث العلمى فى دراسته ، فهو وإن كان قد جمع فى كتابه كمية كبيرة من الأدلة المتعلقة بالعرب وتاريخهم من العديد من المصادر ، إلا أنه - بدلا من أن يقوم بدراستها وتحقيقها لاستخلاص النتائج المنطقية لها - اكتفى باختيار ما يوافق هواه الشخصى منها ، ليقيم عليه نتيجته . وعلى هذا - فبرغم الصعوبة التى يجدها القارىء فى متابعة كتاب « فقه اللغة العربية » - إلا أنه يخرج

منه أكثر جهلا بالموضوع مما كان قبل قراءته .

والجزيرة العربية هى بلاد العرب التى تقع بين قارة آسيا ومصر الأفريقية ، تحدها شمالا دولتا العراق والأردن ، إلا أنها كانت تمتد فى الأزمنة القديمة لتشمل مساحة شرق الأردن ومجمل الصحراء السورية فى الشمال ، إلى جانب الجزء الجنوبى من فلسطين . وكانت صحراء سيناء - وإن خضعت سياسيا للدولة المصرية - إلا أن سكانها كانوا من عرب الجزيرة الذين يتجولون فى المنطقة بحرية تامة ، إذ كانت نقاط حراسة الحدود المصرية تقع عند القنطرة والإسماعيلية ثم امتدت على طول طريق حورس الذى يصل الدلتا بفلسطين .

صحيح أن كلمة « عرب » لم تظهر فى المصادر التاريخية قبل القرن التاسع ق . م . ، لكن هذا لا يعنى عدم ظهور العرب أنفسهم قبل هذا التاريخ . فلم يظهر اسم العراق - مثلا - فى المصادر القديمة ، لكن هذا لا ينفى أن سومر وبابل وأشور كانت أسماء لممالك عراقية . وكان المصريون يسمون بلادهم « طاوى » - بمعنى « الأرضين » أو « أوددطا مرى » - بمعنى « الأرض الحبيبة » - كما سماهم اليونان « إيجيبتوس » ، ولكن هذا لا ينكر أن هذه التسميات نفسها هى التى كانت تطلق على

مـا يعرف الآن باسم « مصر » . كيف للدكتور عوض أن يؤرخ لظهور أمة العرب فقط منذ ظهور إحدى ممالك أهل الجزيرة باسم مملكة « عربى » ، بينما الأقوام العربية وممالك جزيرة العرب معروفة منذ بداية التاريخ ؟ .

وبينما لا يوجد فى العهد القديم كلمة تعبر عن الجزيرة العربية ، إلا أنه يحتوى على العديد من أسماء القبائل العربية . فقد وردت أسماء قبائل من شمال الجزيرة وردت أسماؤهم من بين سلالة إبراهيم فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين : « وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة . فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا . . . وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم . . . نبايوت بكر إسماعيل وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمة . هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم . اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم » . وكذلك من بين سلالة عيسو بن إسحاق (شقيق يعقوب) حيث ورد فى الاصحاح السادس والثلاثين من نفس الكتاب :

« هؤلاء أمراء بنى عيسو . بنو أليفاز بكر عيسو أمير تيمان وأمير أومار وأمير صفو وأمير قنار وأمير قورح وأمير جعثام . وأمير عماليق . هؤلاء أمراء أليفاز فى أرض أدوم . هؤلاء بنو عدا . وهؤلاء بنو

رعوئيل بن عيسو . أمير نحث وأمير زراح وأمير شمة وأمير مزة . هؤلاء أمراء رعوئيل فى أرض أدوم . هؤلاء بنو بسمة امرأة عيسو. وهؤلاء بنو أهوليبامة امرأة عيسو أمير بعوس وأمير يعلام وأمير قورح . وهؤلاء أمراء أهوليبامة بنت عنى امرأة عيسو .وهؤلاء بنو عيسو الذى هو أدوم وهؤلاء (هم) أمراؤهم » .

كما جاءت أسماء عدد من قبائل جنوب الجزيرة فى بيان الأمم الذى ورد فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين ، من سلالة « سام » مثل حضرموت وشيبا وأوفير وحويلة . بل إن كلمة « عرب » قد جاءت بسفر الخروج للدلالة على بعض الأقوام الذين كانوا مع موسى ، فى القرن الرابع عشر السابق للميلاد .فقد جاء فى الاصحاح الثانى عشر « فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت . . . وصعد معهم عرب (لفيف) كثير أيضا » . وبينما الكلمة العبرية هنا هى بكل تأكيد « عرب » ، فإنه نظرا لأن المترجمين كانوا - مثل الدكتور عوض - لا يعترفون بوجود العرب فى مصر فى تلك الحقبة من الزمان - فهم قد ترجموها على أنها تعنى « لفيف » . ونحن نجد العديد من الإشارات التى تؤكد أن المديانيين الذين سكنوا سيناء منذ بداية التاريخ ، كانوا من العرب ، وحتى فى العهد الجديد جاءت الإشارة إلى أن سيناء تعتبر جزءا من بلاد العرب . قد ورد فى الاصحاح الرابع من رسالة بولس

الرسول إلى أهل غلاطية أن « جبل سيناء فى العربية » .

وأول ما ظهرت كلمة « عرب » فى المصادر التاريخية ، كان فى نص لشالمانصر الثالث جاء فيه ذكر « جندوبو العربى » . كان نجم أشور بدأ يصعد عند بداية القرن التاسع قبل الميلاد فى أيام « أشور ناصربال الثانى » ، ثم خرج خليفته شالمانصر الثالث على رأس جيش ـ من عاصمة أشور شرقى شمال دجلة ـ واتجه غربا واستخدم جلود الماعز المنفوخة لعبور نهر الفرات إلى شمال سورية ، ثم سار إلى حلب التى سرعان ما فتحت أبوابها إليه بدون قتال ، ثم زحف جنوبا فى الطريق المؤدى إلى حمص بوسط سورية . إلا أنه هذه المرة واجه تحالفا من ملوك المنطقة بزعامة حمص ودمشق ومملكة « عربى » ، التقى بهم عند « قرقر » ـ وكانت مدينة هامة فى الطريق بين حمص ودمشق ، فلم يتمكن من إكمال مسيرته . وعاد ملك أشور وشن هجومًا آخر بعد ذلك عام ٨٤١ ق . م . وتمكن من هزيمة التحالف والاستيلاء على دمشق وتوغل بجيوشه جنوبا فى فينيقيا وكنعان .

تمت معركة قرقر عام ٨٥٣ ق . م ، وواجه بها الملك الأشورى قوات التحالف التى بلغت حوالى ٦٠ ألف رجل . وبالرغم من أن شالمانصر استطاع إلحاق خسائر فادحة فى قوات التحالف ، إلا أن هذه المعركة أنهكت قواه فلم يعد قادرا على متابعة مسيرته جنوبا ، وتجمدت حدود

إمبراطوريته هناك حوالى عشر سنوات . وورد ذكر العرب على أنها كانت من بين تحالف ملوك الشام ، حيث اشتركت فرقة عربية تتكون من ألف من راكبى الجمال ، وتم تصويرهم فى لوحة « أشور بانيبال » فى مدينة نينوى . وهذا النص دليل على وجود كيان سياسى عربى امتد من شمال الجزيرة ليشمل كل أرض شرق الأردن الحديثة إلى كامل الصحراء السورية بين المدن الساحلية ونهر الفرات .

كما يذكر الملك الأشورى « تجلاث بلسر الثالث » الذى حكم أشور بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان اسم ملكة العرب ، بينما تحدث خليفته « سرجون الثانى » عن ملكة أخرى هى شمس : « حطمت قبائل ثمود وإباديدى ومارسيمانو وهيابا العرب الذين يعيشون بعيداً فى الصحراء ... الذين لم يقدموا الجزية لأى ملك ، ورحلت الناجين منهم وأسكنتهم فى السامرا . أما برأو ملك مصر وشمس ملكة عربية ... فقد تلقت هداياهم من ذهب على هيئة تراب وأحجار كريمة وعاج وحبوب العاج وكل أنواع مواد العطر والخيول والجمال » . وكانت هذه الممالك العربية تسيطرعلى خطوط التجارة جنوبا إلى اليمن - ومنها إلى الساحل الأفريقى - والجنوب الشرقى إلى مسقط والبحرين - ومنها إلى الهند والشرق الأقصى .

وقد ناصر العرب ملوك بابل بجنوب أرض الرافدين فى صراعهم

المستمر ضد الملوك الاشوريين فى الشمال . وقامت « ياتئى » ملكة العرب بإرسال أخيها « بسقانو » على رأس وحدة حربية لمساعدة بابل فى عهد « سيناخريب » للاشتراك فى حركة التمرد ضد أشور . وسار الملك الأشورى عام ٧٣٤ ق . م .جنوبا واستولى على غزة . ويقول تجلاث بلسر إنه أقام هناك مركزا تجاريا للأشوريين « بيت كارى » كما أقام تمثاله على الحدود المصرية عند « نخال مصرى » بوادى العريش . ولكنه عاد بعد ذلك بعامين لمحاولة الاستيلاء على سيناء وعين مندوبا عنه فى المنطقة شيخ عربى يسمى « إديبائيل » أعطاه لقبا هو « حارس حدود مصر » .

هجرات القبائل العربية
قبل اختراع الكتابة فى مصر وفى سومر

النصوص التى وصلتنا من العربية الفصحى - سواء من العصر الجاهلى أم من العصر الإسلامى - جاءت مكتوبة ، ولابد لنا حتى نعرف أصل هذه اللغة وتاريخها من أن نبدأ منذ أول ما عرف الإنسان فن الكتابة ، فى مصر وفى سومر ، ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ولا شك أن اللغة المكتوبة - فى أول مراحلها - كانت تتفق إلى حد كبير مع لغة الكلام عند الأقوام العربية القديمة . ونحن نجد أن اللغات المكتوبة - منذ بدايتها - تتضمن الكثير من اللغة العربية التى عرفناها فيما بعد ، مما يؤكد ما أصبحت تشير إليه الدراسات الأثرية الحديثة من أن غالبية الأقوام التى سكنت منطقة الحضارات القديمة جاءت من جزيرة العرب .

فخلال العصر الجليدى ، عندما كان شمال أوروبا والقارة الأمريكية يقع تحت غطاء سميك من الجليد ، كانت الجزيرة العربية وشمال أفريقيا ، تعتبر منطقة خضراء تكثر فيها منابع المياه والنباتات . وقد أدت

التغيرات الطقسية عند نهاية العصر الجليدى ، إلى بداية مرحلة التصحر . فبعد انتهاء العصر الجليدى الأخير - منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام قبل الميلاد ، بدأ ذوبان الجليد فى المناطق الشمالية ، وصاحب هذا عملية تصحر تدريجى فى الجزيرة العربية وشمال افريقيا - ما زالت مستمرة حتى وقتنا هذا . وهكذا كانت غالبية الهجرات البشرية التى جاءت إلى أرض الهلال الخصيب ووادى النيل فى الأزمنة القديمة ، مصدرها الجزيرة العربية ، وما الكنعانيون والأكاديون والأراميون الذين سكنوا هذه المناطق إلا مهاجرون ساميون عرب ، خرجوا من الجزيرة العربية منذ الألف السادسة قبل الميلاد .

كانت أول الأقوام التى سكنت جنوب أرض الرافدين ، مزيجا من قبائل عربية سامية وأقوام فارسية جاءت من مناطق خوزستان الجبلية فى الشرق . إلا أن الأقوام السومرية التى أعطت هذه المنطقة اسمها لم تأت إلا فى النصف الثانى من الألف الرابعة ق . م .، حيث فرضت سيطرتها على الجماعات التى كان تعيش هناك من قبل . ولا أحد يعرف بالضبط من أين أتى السومريون ، وهناك من يعتقد بأنهم جاءوا من عند جبال القوقاز فى أواسط آسيا أو من أرمينيا وجبال إيران أو من وادى السند وبلاد الهند ، لأن الملاحم السومرية القديمة تتحدث عن بلاد تقع خلف الجبال ، وكذلك لأهمية « الجبل » فى اعتقاداتهم الدينية . إلا

أن غالبية الباحثين تميل إلى الاعتقاد بأن السومريين قد وصلوا عن طريق الخليج فى الجنوب لأن تجمعاتهم كانت فى الجنوب .

تكونت مملكة سومر من مجموعة من المدن مستقلة بعضها عن الآخر فى النصف الجنوبى من وادى الرافدين - كان حكامها يخضعون للملك - مثل « أريدو » و« أور » و« سبار » و« شروباك » و« أوروك » ، وتبادل ثلاثة منهم حكم البلاد . واستمر حكم السومريين إلى ٢٣٢٥ ق . م . ، عندما جاءت أقوام سامية من الشمال والغرب بقيادة ساراجون وغزت مملكة سومر ومعظم منطقة الهلال الخصيب . وبنى ساراجون « أكاد » عاصمة جديدة ، وبدأت الدولة تعرف منذ ذلك الوقت باسم « سومر وأكاد » . إلا أن هذه الدولة لم تدم طويلا وسرعان ما تعرضت لهجمات من الشرق ومن الغرب ، كما نشبت الصراعات بين المدن السومرية نفسها حتى عصر حمورابى ، الذى - بانتهائه خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد - انتهت سومر كلية ، وبدأ العصر البابلى ذو الطابع السامى العربى .

كان أهم ما قدمته سومر للبشرية هو اختراع الكتابة المسمارية ، وأقدم نصوص سومرية مكتوبة تم العثور عليها تعود إلى حوالى ٣٠٠٠ ق . م . ، وإن ساد الاعتقاد ببدايتها - فى شكلها البدائى - قبل ذلك بخمسة قرون .

ولم يتبين وجود أية علاقة بين السومرية - التى تحتوى على ١٥ صوتا - وبين أى لغة أخرى ، قديمة أو حديثة . فالسومرية هى لغة تجمعية ، وهى فى هذا تشبه اللغة التركيبية - حيث تلصق الكلمات سويا لتكوين كلمة مركبة ذات معنى مركب - وليست لغة تصريف مثل اللغات السامية أو الإندو - أوروبية ، وتتكون الكتابة المسمارية السومرية من مقاطع وليس من حروف ، فيقوم الكاتب بالتعبير عن أفكاره عن طريق اختيار شكل العلامات التى يستخدمها ، من حيث دلالتها الصوتية والتركيبة اللغوية التى تصاغ بها ، ويقوم بنقشها على ألواح من الطين الطرى ، ثم يتركها معرضة للشمس حتى تجف . وليس هناك وجود للأصوات ذات الطبيعة العربية فى اللغة السومرية - مثل « ع » و « ح » و « ض » - إلا أن بها كلمات عربية ترجع إلى الأقوام الأولى قبل مجىء السومريين .

ومع أن السومريين هم الذين اخترعوا هذه اللغة ، إلا أن غالبية النصوص التى تفسر طريقة النطق بها ترجع إلى الأكاديين الذين خلفوهم . فعندما انتهى حكم السومريين انتهى كذلك استخدام لغتهم فى الكلام ، فقام الكتبة الأكاديون الساميون الذين يقومون بتدريس هذه اللغة لتلاميذهم بإعداد قوائم تحتوى على الكلمات السومرية وطريقة نطقها بالأكادية . ويرجع الفضل فى فك رموز هذه اللغة القديمة

عـام ١٨٠٢ ، إلى العـالم الألمانى « جمـيـورج فـريدريك جروتـفند » ، وأكمل هذا العمل الباحث الانجليزى « سير هنرى رولنسون » عام ١٨٤٦ .

وبالرغم من أن اللغة التى اخترعـهـا السومريون لم تكن من العـائلة السامية العربية ، إلا أن الكتابة المسمارية استخدمت - بعد نهاية حكم السومريين - لتدوين اللغات الأكادية والبابلية والأشورية والأوغاريتية السورية ، قبل ابتكار الأبجدية الفينيقية . وكان الوضع مختلفا عن ذلك كثيرا بالنسبة إلى اللغة الهيروغليفية التى ظهرت فى مصر فى نفس الفترة الزمنية ، والتى تختلف تماما عن لغة السومريين . فمن الواضح أن اللغة المصرية القديمة كانت تشترك مع اللغات السامية فى العديد من التركيبات الجوهرية وإن كان بها بعض التشابه أيضاً مع لغات إفريقية ، مثل الصومالية فى الشرق والبربرية فى الشمال . مما يدل على أن سكان مصر منذ البداية ، كانوا يمثلون خليطا من أقوام جاءت من الجزيرة العربية وشمال وشرقى أفريقيا . فالمصرية تشترك مع السامية فى خاصتها الأساسية التى تجعل كلماتها تشتق من مصدر واحد ، غالبا ما يتكون من ثلاثة أحرف ، كما تشتمل على كلمات مشتركة عديدة .

وكان الاعتقاد فى البداية ، استنادا إلى القوائم التى تحتوى على أسماء ملوك الدولة القديمة وعدد السنين التى حكموها ، هو أن

التـاريخ المصـرى - أى تاريـخ ظهـور الكتـابة المصرية - يرجع إلـى عـام ٤٢٤١ ق . م . إلا أن الباحثين الذين حققوا هذه التواريخ ولم يعثروا على أدلة تاريخـيـة ترجع إلى بعض الأسـمـاء التى ورد ذكرها فى هذه القـوائم ، قـد اتفـقـوا عـلى جعل هذا التـاريخ هو ٣١٠٠ ق . م . وتم تحقيق تسلسل قـوائم الملوك منذ ذلك التـاريخ ، والتحقق من مدة حكم كل منهم .

وكانت المفاجأة عندما عثرت البعثة الألمانية عام ١٩٩٣ على نماذج من الكتـابة الهيـروغليـفـيـة - فى إحدى المقابر بمنطقة أبيدوس بصعيد مـصـر - تعـد أقـدم من لوحـة نارمر بمائة عـام على الأقل . فـقـد أعلن الدكتور « جنتر » الذى أشرف على أعمال الحفر - بمحاضرة له بالمتحف البريطانى بلندن - أن حدود التاريخ المصرى قد تقدمت لتصبح ٣٢٠٠ قـبـل الميـلاد . وتقـع هذه المقـبـرة على حـافـة وادى النيـل غـربـى مـدينة البلينا ، فى محافظة سوهاج بالصعيد ، عثر فيها على بعض الكتابات الهيروغليفية مكتوبة بالحبر الأسود على الأوانى الفخارية . ومعنى هذا أن أقدم النصوص الهيـروغليـفـيـة التى تم العـثـور عليـهـا تسبق أقـدم النصوص المسمارية التى وجدت بمائتى عـام . وإن ظل الخلاف قائما بين العلماء فى تحديد تاريخ ظهور المراحل البدائية من كلتا اللغتين ، والتى لم يتم العثور على نماذج منها .اعتقد المصريون القدماء أن « تحوت »

إله المعرفة هو الذى اخترع الكتابة الهيروغليفية ، التى سماها اليونان « هيروجليفيكا جراماتيكا » أى « حفر الحروف المقدسة » . أما المصريون فأطلقوا على لغتهم اسم « مدونتر » أو « مداد نطر » بمعنى « الكلام المقدس » .

تطورت الكتابة الهيروغليفية - والتى كانت تتم فى البداية عن طريق الحفر على الحجر - عن الكتابة التصويرية البدائية . فكان الكاتب فى البداية يرسم صور الأشياء التى يريد التحدث عنها ، إلا أنه بهذه الطريقة لم يكن فى إمكانه التعبير عن الدلالات التى لا يمكن رسمها ، كاسم العلم مثلا . وتطور الأمر بعد ذلك فأصبح الكتبة يقومون برسم لشىء - ليس للدلالة عليه نفسه - وإنما لاستعمال الصوت الناتج عن قراءته فى الدلالة على شىء آخر . فعلى سبيل المثال ، إذا كان هناك طائر يبدأ اسمه بحرف الألف ، فهم قد رسموا صورة هذا الطائر للدلالة على هذا الحرف . وتحتوى اللغة الهيروغليفية على أصوات اللغات السامية الأساسية ، مثل الحاء والعين والضاد ، ولكنها لا تعرف حروف الثاء والذال والظاء ، مثلها فى هذا مثل العامية المصرية حاليا .

وبينما امتزجت عناصر شعب وادى النيل فى الأزمنة القديمة ، ظل سكان سيناء محتفظين بالطبيعة السامية العربية فى حياتهم وفى

لغتهم . وقد قامت بعثة جامعة بن جوريون برئاسة إليعازر أورين ، بعمليات مسح أثرى لمنطقة شمال سيناء فى ما بين ١٩٧٢و١٩٨٢ ، خلال فترة الاحتلال الإسرائيلى . وفحصت المنطقة الواقعة بين القنطرة ومدينة رفح بالقرب من الحدود الفلسطينية . وعثرت خلالها على أكثر من ٢٥٠ موقعا يرجع تاريخها إلى ما قبل وحدة الأرضين وبداية التاريخ المصرى . وتبين وجود بقايا ـ منذ هذا التاريخ ـ لنوعين من الأقوام ، من القبائل الكنعانية العربية من سكان صعيد مصر من الجيزة وسقارة وأبيدوس .

بل إنه تبين أن نفوذ الدولة المصرية عند بداية تكوينها قد امتد ـ ليس فقط ليشمل سيناء ـ وإنما جنوب فلسطين وشمال الحجاز كذلك . وتم العثور على بقايا مستوطنات لأقوام سامية كنعانية فى سيناء ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ . وأصبحت سيناء جزءا من الوحدة السياسية المصرية منذ البداية ، وإن احتفظ سكانها بحرية الحركة فى صحراء النقب وشمال الحجاز .

كانت الكتابة الهيروغليفية الأولى تعبر عن لغة الكلام السائدة فى وقت نشوئها ، إلا أنه بمرور الزمن ، تغيرت اللغات المستخدمة فى الكلام بينما لم تتغير اللغة المكتوبة إلا قليلا ، مما جعل هناك إختلافاً بين

اللغة المكتوبة ولغة الكلام فى العصور التالية . وهكذا نرى أن الأقوام التى هاجرت من الجزيرة العربية فى عصور ما قبل التاريخ قد ساهمت فى ظهور اللغات الكتابية الأولى ، ولسوف نرى التطور الذى حدث بعد ذلك والذى أدى فى النهاية إلى ظهور العديد من اللغات السامية المكتوبة ، وتطور كتابة الرسم والنقش إلى حروف الأبجدية الحديثة .

ولا يزال هناك خلاف بين الباحثين حتى الآن ، فى الأصل الذى تطورت عنه الأبجدية وهل هو المسمارية أم الهيروغليفية المصرية . وبحسب الأساطير اليونانية فإن الكتابة وصلت إلى بلاد اليونان عن طريق الفينيقيين ، وهذا هو الاعتقاد الذى نراه سائداً لدى الكتاب اليونان والرومان ، الذين يقول بعضهم بأن الفينيقيين تعلموا فن الكتابة عن المصريين . ولكن منذ القرن التاسع عشر ظهر بعض الباحثين الذين يشكون فى الأصل المصرى للغة الفينيقية وينسبونه إلى لغة الأكاديين ، الذين حلوا محل السومريين فى أرض الرافدين منذ القرون الأولى للألف الثانية قبل الميلاد .

ظهور لغة موحدة لكتابة الرسائل

وبداية الكتابة السامية

أثار قصى الحسين ، الأستاذ فى الجامعة اللبنانية فى عدد « الحياة » الصادر فى ٣١ أيار (مايو) الماضى - قضية تأثر طه حسين فى مسألة انتحال الشعر الجاهلى ، بأحد المستشرقين الغربيين اسمه « مرجيليوت » . كما بين الأستاذ قصى الطبيعة التآمرية التى تكمن وراء هذه الدعوى ، ذلك أن : « دعوى مرجيليوت فى مسألة الانتحال ...دعوى مغرضة هدفها إثارة الشكوك فى صحة الشعر الجاهلى ، وذلك لإسقاط ما اختص به العرب عن غيرهم من الأمم ، إذ جعلوا من الشعر ديوانهم وسجل حياتهم وحضارتهم ، وبإتلاف هذا السجل بدل صيانته والحفاظ عليه ، يسقط آخر ما تبقى لهم من قيمة بين الأمم القديمة . وبذلك تستكمل آخر حلقات التآمر على ماضى العرب وتاريخهم الأدبى الحضارى » .

ولم يكن الأستاذ قصى هو أول من وجه هذا الاتهام إلى عميد الأدب العربى ، فقد استند إليه العديد من معارضى طه حسين قبل ذلك ، الذين حاولوا التخلص من الإجابة على سؤاله عن طريق التشكيك فى أهدافه . وهم هنا يثيرون نقطتين : أن ما قال به طه حسين بخصوص الشعر الجاهلى ، لم يكن رأيه الخاص وانما اقتبسه من مرجليوت ، وأن هناك مؤامرة على العرب اشترك فيها طه حسين - لإسقاط أهميتهم بين الأمم .

وأثبتت الأيام أن هذا السلاح كان أقوى الأسلحة التى وجهت ضد طه حسين وأمثاله من الباحثين الذين تجرأوا وخرجوا على القواعد المألوفة فى التفكير ، فإذا كانت هناك مؤامرة ، فليس ما يوجب علينا مناقشة القضية بأسلوب البحث الموضوعى وإثبات خطأ ما توصل إليه الباحث ، يكفى أن نقول إن هناك مؤامرة حتى تكون كل نظرية جديدة خاطئة ، ويكون الفكر القديم هو الصحيح . وبقدر ما حافظ هذا الأسلوب على الوضع القديم على ما كان عليه ، بقدر ما أقام سياجا من العزلة بين مفكرينا وبين الآفاق الجديدة للمعرفة . وليس منا من ينكر أن الفكر العربى فى هذه المرحلة - ونحن على أعتاب الألف الثالثة للميلاد - قد أصبح أكثر تخلفا عما كان عليه فى بداية العصور الإسلامية .

فلم يكن طه حسين شخصا لا يملك من المعرفة ما يضطره إلى اقتباس آراء الآخرين ونسبتها إلى نفسه ، كما لا يوجد دليل - أو مبرر - لاتهامه بالتآمر ضد حضارة قومه . ومع هذا فلا شك أن الباحث العربى قد تأثر بأفكار الغربيين والمستشرقين - ليس عن طريق التآمر - وإنما عن طريق الاقتناع . اقتنع طه حسين بما طرحه مرجيليوت وغيره ، واستدل بأبحاثه إلى تأكيد نتيجة ما توصلوا إليه ، وصحته ، وأنا وإن كنت أختلف مع طه حسين فى النتيجة التى توصل إليها ، إلا أننى أؤكد كما أكد الدكتور رشيد العنانى أنه لا طريق أمامنا - إذا شئنا اللحاق بحضارة عصرنا - إلا اتباع أسلوب البحث العلمى ومحاولة الدفاع عن حضارتنا بالدليل ، لا بافتعال المؤامرة . وتبقى القضية الأساسية لبحثنا هى نفس القضية التى أثارها طه حسين ، عن طبيعة اللغة العربية فى الجاهلية ، وهل كانت الفصحى هى لغة الكلام لدى قريش ، أم أن « دعوى أن اللغة الفصحى (هى) لغة قريش ، أمر ليس على إطلاقه » ، كما قال خالد محمد التويجرى فى خطابه إلى الحياة المنشور فى ٢٧ أيار (مايو) .

لا شك أن الكتابة هى أهم العناصر التى أدت إلى قيام الحضارة البشرية الحالية ، فهى قد مكنت الإنسان من نقل ما اكتسبه من معرفة إلى الآخرين الذين يقيمون فى أماكن بعيدة عنه ، وكذلك إلى الأجيال

التالية . وهكذا بدء التعليم ، فأصبح صغار الأجيال التالية يطلعون على معارف كبار الأجيال السابقة ويبدءون مسيرتهم من النقطة التى انتهى عندها آباؤهم . فأصبحت المعرفة تسير فى طريق تصاعدى بعد أن كان كل جيل وكل قوم يبدأ طريق المعرفة من أوله . كم أعطت الكتابة الفرصة لمراجعة الإنسان لكلماته المكتوبة ، وإعادة صياغتها على نمط معين من قواعد التركيب أو الإيقاع والوزن . وأصبحت الكلمة ـ وهى مكتوبة ـ معروضة على الفكر لتمحيصها ونقدها ، مما ساعد على قيام النظريات النقدية والفلسفية . فمن يكتب نصا غير من يلقى كلاما غير مكتوب ، فبينما يخرج المتحدث الكلام ولا يستطيع التحكم فيه بعد إلقائه ، فإن الكاتب يستطيع استبدال كلمة بأخرى أو اختيار كلمات لها إيقاع معين ، أو التحكم فى صياغته لتوافق تركيبة لغوية تقوم على أساس من قواعد اللغة السليمة .

وكما رأينا ، لم تقم أول لغتين ظهرتا فى العالم القديم ـ المسماوية السومرية والهيروغليفية المصرية ـ على أسس من حروف أبجدية محددة ، بل كانت تستخدم الصور والرموز والعلامات للدلالة على الأصوات والمعانى المقصودة . وكانت الصورة أو العلامة تعبر أحيانا عن صوتين أو أكثر ، فعلامة الدائرة ـ على سبيل المثال ـ كانت تمثل فى الهيروغليفية صوتين « رع » ، فى البداية ، (أصبحت تمثل حرف « ر »

فقط بعد ذلك) . كما كانت الكتابة السومرية تقوم على المقاطع ، وغالبا ما يحتوى المقطع على الحركة إلى جانب الصوت الساكن ، ويُعتبر ظهور حروف الأبجدية - وهو النظام المستخدم الآن فى أغلبية اللغات - هو آخر أشكال تطور الكتابة وأكثرها تقدما ، والتى تحتوى عادة على ٢٢ إلى ٢٨ حرفا .

عند منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، اتخذت الأقوام السامية فى وادى الرافدين ، الكتابة المسمارية واستعملتها فى كتابة لغتها . وهم فى هذه الحالة أدخلوا عليها العلامات التى تعبر عن أصوات لغتهم ، والتى لم تكن موجودة عند السومريين ، وبسبب الخلاف القائم بين لغتهم الأصلية - والتى تنتمى إلى العائلة السامية العربية - وبين اللغة السومرية ، فقد لجأوا إلى إنشاء أول أنواع القواميس التى عرفها الإنسان . فقام الكتبة الأكاديون والأشوريون بعمل قوائم تشتمل على المفردات السومرية ومقابلها فى لغتهم الأكادية والأشورية ، كما قاموا كذلك بترجمة النصوص السومرية حتى يدرسها التلاميذ . ومن نماذج هذه الكتابة نص سجله « بوديلو » ملك أشور على لوح صغير ، عثر عليه فى بقايا مدينة « أشور » القديمة - العاصمة الأولى للمملكة التى تقع عند « قلعة شرقاط » الحالية ، غربى دجلة فى شمال العراق ، جاء به ، «بوديلو ربو كينو زارو دانو زار أشور بانى بيت شمش بيت

إلى ناصيرى » ، والذى معناه : « بوديلو » السيد الحق ، الملك القوى ملك أشور ، بانى معبد شمس ، معبد الإله الناصر .

وفى خلال الألف الثانية قبل الميلاد استعارت شعوب سورية وفينيقيا وكنعان اللغة الأكادية فى كتابتها ، وإن اختلفت عن لغة الكلام فى هذه البلاد . ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما خرجت القوات المصرية إلى كنعان وسورية - منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد - حيث أصبحت اللغة الأكادية المسمارية هى لغة الكتابة الرسمية ، ليس فقط فى منطقة الهلال الخصيب ، بل وفى مصر وبلاد الحيثيين كذلك ، عندما صارت هى اللغة الدبلوماسية التى يستخدمها ملوك هذه البلدان فى المكاتبات والمراسلات .

كانت مصر ، خلال منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وقعت تحت سيطرة أقوام سامية أجنبية عرفوا باسم الهكسوس ، أو «حكاخاسوت » وبعد ١٠٨ عاما من سيطرة الهكسوس استطاع أحمس - أمير طيبة بالصعيد - تحقيق نصر عسكرى عليهم أدى إلى خروج الهكسوس إلى كنعان وسورية . إلا أن ملوك الأسرة الثامنة عشر المصريين - خلفاء أحمس - خشية منهم أن يعود الهكسوس مرة أخرى ، قاموا بشن حملات عسكرية على كنعان وسورية فى أيام تحتمس الأول

ثم فى أيام حفيده تحتمس الثالث وابنه امنحتب الثانى ، انتهت عند نهاية القرن الخامس عشر ق . م . بمد النفوذ المصرى ما بين أعالى الفرات عند حدود الأناضول والكاتراكت الرابع للنيل شمال الخرطوم .

ولما جلس امنحتب الثالث على عرش مصر فى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، كان عصره بداية لمرحلة جديدة انتشر فيها السلام وبدأت علاقات الصداقة والدبلوماسية تسود بين ممالك المنطقة . فكان تبادل الهدايا بين الملوك ، كما تزوج امنحتب الثالث من أميرتين من سورية وأميرتين من بابل وأميرتين من ميتانى(شمال غربى العراق) وأميرة من بلاد الأناضول ، إلى جانب عدد من نساء الحريم الذى بلغ ما يزيد على ثلاثمائة . وبدأ تقليد دبلوماسى جديد فى تلك الحقبة ، فكان ملوك المنطقة يتبادلون كتابة الرسائل - التى يحملها السفراء فى ما بينهم ، لبحث مشاكلهم ومناقشة علاقاتهم المشتركة . وتم العثور على حوالى ٣٥٠ من هذه الرسائل المعروفة باسم « رسائل العمارنة » - مصادفة قبل نهاية القرن الماضى . عثرت عليها إحدى الفلاحات بينما كانت تجمع السباخ عند موقع القصر الملكى القديم بتل العمارنة فى صعيد مصر ، وهى الآن موزعة بين متاحف برلين ولندن والقاهرة ، إلى جانب المتاحف الصغيرة وهواة جمع التحف .

تبين أن هذه الرسائل ترجع إلى فترة حكم امنحتب الثالث وابنه اخناتون ، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وتمثل أرشيف الرسائل الدبلوماسية بين الملوك المصريين وملوك الشعوب المجاورة ، وكذلك مع المسئولين المصريين المقيمين فى فلسطين وسورية . وهناك ثلاثون لوحا منها ، تحتوى على قائمة من الكلمات على شكل قاموس كما توضح طريقة الهجاء ، وتعطى نماذج من التعبيرات التى تستخدم فى كتابة هذه الرسائل ، وكذلك بعض نماذج من أدب الأكاديين حتى يدرسها الكتبة المصريون .

وظهر اختلاف فى طريقة نطق الشعوب للغات غيرها ، فكلمة « رع » المصرية ، تحولت إلى « ريا » فى كنعان ، فقد ورد اسم امنحتب الثالث « نب مات رع » ، فى هذه الرسائل على أنه « نموريا » . كما ظهرت فى هذه الخطابات بعض الكلمات المترادفة والتركيبات اللغوية من كل من شعوب المنطقة ، وبهذا أصبحت تمثل بداية ظهور لغة مشتركة بينها . فكلمة « ملك » الكنعانية تقابلها « زار » الأكادية و « نب » المصرية ، وكلمة « أدون » الكنعانية تقابلها « رب » الأكادية و « أمير » المصرية .

ولم يقتصر الاختلاط فى لغة رسائل العمارنة على التعبيرات الكنعانية والأكادية والمصرية وعلى الكلمات فقط ، بل جاء كذلك فى

القواعد اللغوية وفى النحو ، وفى طريقة تركيب الجمل والتعبيرات اللغوية . ويتضح من هذه الرسائل أنه ـ وإن كانت اللغة الأكادية هى المستعملة فى جميع هذه الرسائل خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد ـ إلا أنها تتضمن تعبيرات أمورية (سورية) ومصرية وكنعانية ، جاءت من اللغات الخاصة بهذه الشعوب . ومن الواضح أن الرسائل التى كتبها ملوك فلسطين وسورية وفينيقيا ـ وإن كتبت بالأكادية المسمارية ـ فهى تمثل خليطا من التعبيرات الأكادية والكنعانية ، بل إن بعضها يكاد يكون كنعانيا بأكمله .

فقد كانت شعوب أرض الرافدين تتحدث لهجة سامية شمالية شرقية ، بينما استعملت شعوب بلاد الشام لهجة سامية شمالية غربية . وهكذا اتضح أن اللغة التى استخدمت لكتابة رسائل العمارنة ـ وإن كانت قد اعتمدت على الأكادية المسمارية أساسا ـ إلا أنها تطورت وأصبحت تمثل لغة أدبية خاصة ، تختلف عن لغة كلام الأكاديين والكنعانيين والمصريين فهى لغة أدبية خاصة لا يستخدمها أى قوم فى الكلام ، وإنما تستخدم فى كتابة الرسائل الدبلوماسية ، والكتابات الأدبية فقط . ولسوف نرى ماذا حدث لهذه الكتابة الأدبية فى ما بعد ، وكيف خرجت منها أولى الحروف الأبجدية التى عرفتها البشرية ، وكيف تطورت منها العربية الفصحى .

هل حقا كانت العربية الفصحى
هى لغة الكلام فى قريش ؟

هل كان شك طه حسين فى أصل الشعر الجاهلى ناتجا عن استخدامه فلسفة الشك عند ديكارت ، أم أنه ـ فى سلوكه هذا ـ أخطأ فهم ما قال به الفيلسوف الفرنسى ؟ .

هذا هو السؤال الذى طرحه عدد من المفكرين العرب من قبل . والذى أثاره الباحث المصرى أبو الزهراء والى ، فهو يقول : « الظاهر أن طه حسين لم يفهم منهج ديكارت حق الفهم ، لأن الشك عند الأخير شك إرادى ، أى أنه تعمده وافترضه افتراضا لينتهى به إلى اليقين وليس إلى الإنكار . القاعدة الأولى فى منهج ديكارت تقول : لا أقبل شيئا قط على أنه حق ما لم يتبين لى ببداهة العقل أنه كذلك . أى أنه جعل العقل حكما فى قبول أو رفض ما يرد إليه ، بعرضه على البديهيات العقلية . والبديهية هى ما يرد إلى

الذهن من تلقاء نفسه ، وعلى ذلك تدخل فيها المقولات الأساسية المفطورة في العقل البشرى مثل أن الكل أكبر من أى جزء من أجزائه ، أو أن المستقيم (هو) أقصر مسافة بين نقطتين ... وليس في وجود شعر جاهلى وشعراء جاهليين - تواترت الأخبار بشأنهم - ما يخالف بديهية العقل » .

وهكذا استخدم أبو الزهراء قواعد المنطق العقلى - لديكارت نفسه - لنقض استنتاج طه حسين . وكان ديكارت من فلاسفة عصر النهضة الذين شكوا فى قدرة الحواس فى الوصول إلى المعرفة الصحيحة عن العالم الخارجى ، فاعتمدوا على منطق الفكر العقلى لتحقيق صحة معرفتهم . فهو قد بدأ برفض قبول العالم المادى الذى يدركه عن طريق الحواس ، إلا أنه - عن طريق شكه هذا - تأكد من حقيقة وجود نفسه ، فحيث إن هناك من يشك فلابد له أن يكون موجودا . ومن إثبات وجود ذاته ، أثبت ديكارت وجود الإله ، فطالما أن العالم الذى يدركه ناقصا ، فلابد عقلا من وجود الكامل ، وهو الذات الإلهية .

وبالطبع فإن هناك اختلافا فى الحقيقة العقلية ، التى يمكن إثباتها - أو نفيها - عن طريق قواعد المنطق العقلى والقوانين الرياضية ، وبين حقائق العلم والتى لابد لإثباتها من توفر أدلة مادية تؤكدها . ولأن وجود الروح والذات الإلهية من الأشياء التى تدخل فى علوم ما وراء

الطبيعة ، يكون المنطق العقلى هو الطريق السليم لمعرفتها ، فليس للروح وجود مادى يخضع لمعايير الاختبار العلمى وأدواته ، أما العالم المادى فلا يمكن تطبيق نفس القواعد العقلية المطلقة عليه ، فى كل الحالات . فلا يستطيع المحقق فى جريمة قتل - مثلا - أن يستخدم قواعد المنطق وحدها للوصول إلى القاتل ، وإنما عليه أن يبحث عن الدليل المادى الذى يؤكد قيام المتهم بارتكاب الجريمة .

وكان طه حسين محقا عندما شك فى صحة انتماء الأدب الجاهلى ، بعد أن تبين له أنه مكتوب بلغة اعتقد أنها لم تكن سائدة فى العصر الجاهلى . إلا أننا لابد وأن نعترف بأن أبا الزهراء كان - هو أيضا محقا عندما شك فى انتحال كل الشعر الجاهلى : « إذ ليس من المعقول أن يؤلف شخص أو أشخاص مئات القصائد التى تحوى آلاف الأبيات وينسبها إلى غيره » .

ومرة أخرى يأتينا من المملكة السعودية رأى يشير إلى أن العربية الفصحى كانت سائدة فى كل أنحاء الجزيرة ، منذ عصور ما قبل الإسلام ، حيث يخبرنا لطف الله قارى - فى رسالته التى نشرت فى الحياة بتاريخ ٩ حزيران (يونيو) - بأن : « الدراسات الحديثة للنقوش أظهرت أن ... اللغة العربية هناك (فى اليمن) كانت تكتب بحروف المسند منذ القرن الثانى أو الثالث للميلاد وأظهرت الدراسات الحديثة أن

اللغة الأم فى مدينة نجران خلال القرن السادس الميلادى (أى قبيل البعثة المحمدية) كانت اللغة العربية التى نعرفها وليست لغة عرب الجنوب ... ووجدت أيضا كتابات باللغة العربية مكتوبة بخط المسند فى قرية الفاو الأثرية بالسعودية وفى منطقة الإحساء شرق السعودية من القرن الثانى والثالث قبل الميلاد ، كما وجدت فى اليمن » .

وهكذا بدأت الأدلة المكتشفة حديثا تبين لنا عن وجود لغة عربية أدبية مشتركة - وإن كتبت بحروف أبجدية متعددة - بين قبائل الجزيرة ، فى الشمال والجنوب كما فى الشرق والغرب ، ولم تكن هذه اللغة سوى العربية الفصحى . وبدأت أهمية القضية الحقيقية التى طرحها طه حسين تظهر أمامنا ، كما بدأت الأدلة تبين لنا لماذا أخطأ هو فى الاستنتاج الذى توصل إليه من أن الشعر الجاهلى كان منحولا ، لأنه كتب بالفصحى . ونحن نرى أن سبب هذا الخطأ هو أنه - وإن شك فى أخبار الرواة فى إخبارهم عن أدب الجاهليين - فهو لم يشك فى روايتهم عندما قالوا بأن الفصحى كانت هى لغة قريش التى تحدثت بها .

رأينا كيف أنه - منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد - ظهرت لغة سامية مشتركة بين شعوب ممالك الهلال الخصيب ومصر ، لم تكن هى لغة الكلام لأى من شعوب هذه المنطقة ، وإنما استخدمت فى الكتابات الأدبية فقط ،

وظهر هذا بوضوح من رسائل تل العمارنة التى تبادلها الملوك فى ما بينهم . ولسوف نرى كيف أن العربية الفصحى جاءت نتيجة لتطور هذه اللغة المكتوبة ، وأنها كانت خليطا من لهجات القبائل العربية ، أصبحت هى اللغة الأدبية للجزيرة كلها .

أدت الاتصالات بين الشعوب القديمة ـ سواء عن طريق الهجرة أو التجارة أو الحرب والتعامل الدبلوماسى ـ إلى تأثر أقوام الحضارات القديمة بلغات بعضها البعض . وأصبحت النصوص المكتوبة ـ التى تم العثور عليها مؤخرا ـ هى أهم المصادر فى التعرف على نوعية الأقوام التى سكنت فى المناطق المختلفة . وكان للعثور على مخازن الألواح المكتوبة بالأكادية فى عاصمة الأشوريين بشمال أرض الرافدين ، وفى راس شمرا (أوغاريت القديمة) بشمال سورية ، الفضل فى التعرف على أسماء الأشخاص والأماكن القديمة ، مما ساعد على تحديد نوعية هذه الأقوام وأماكن انتشارها ، خلال النصف الأول للألف الثانية قبل الميلاد . وتم تقسيم اللغات القديمة إلى قسمين : السامية الشمالية والسامية الجنوبية . وتنقسم السامية الشمالية إلى غربية ـ الكنعانية والفينيقية والأرامية ـ وشرقية فى أرض الرافدين ، وتمثلها الأكادية والأشورية والبابلية .

ومع أن الأكادية المسمارية كانت ـ كما سبق أن رأينا ـ هى أول كتابة استعملتها الشعوب القديمة فى ما بينها ، إلا أن ظهور الحروف الأبجدية وتطور اللغة إلى ما أصبحت عليه الآن ، جاء عن طريق أقوام شمال الجزيرة التى سكنت سيناء . فكما سبق أن رأينا ، فإن الدلائل الأثرية الحديثة تشير إلى أن الأقوام التى سكنت سيناء منذ عصور ما قبل التاريخ ـ وإن خضعت سياسيا للسلطة المصرية ـ إلا أنها كانت سلاليا تنتمى إلى شمال الجزيرة العربية .

كان سكان سيناء وشمال الجزيرة يعرفون فى المصادر الدينية باسم « مدين » ، وكانوا يتنقلون بحرية ما بين شمال الجزيرة وصحراء النقب وسيناء . ويبدو أنهم وإن تعلموا لغة الكتابة الهيروغليفية المصرية ـ إلا أنهم استخدموا اللغة الكنعانية فى الحديث . وجاءت بداية الأبجدية عندما حاولوا كتابة لغة كلامهم عن طريق الكتابة المصرية .

فقد عثر الأثرى البريطانى فليندرز بيترى عام ١٩٠٥ على بعض النصوص ـ أصبحت تعرف باسم « بروتو سينياتك » ـ عند سرابيط الخادم بالقرب من معبد « حات حور » (هاتور) ومناجم حجر « الفيروز » والنحاس ، تبين أنها أقدم كتابة عثر عليها حتى الآن ، تستخدم حروف الأبجدية ولا تستخدم الصور والرموز القديمة . وجد بيترى هذه النصوص منقوشة على بقايا أثرية تم بناؤها فى عصر

تحتمس الثالث - الذى قام بتوسيع بناء معبد حات حور خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر ق . م - مما جعل الأثرى البريطانى يرجع تاريخ هذه الكتابات إلى نفس الفترة التاريخية ، أى أنها تسبق رسائل تل العمارنة المسمارية بنصف قرن من الزمان .

وقد أثار هذا الاكتشاف اهتمام الباحثين الذين حاولوا جهدهم التعرف على أصل هذه الكتابة ودلالتها . وكان ألان جاردنر - عالم اللغويات البريطانى - هو أول من تمكن من تحديد الدلالات الصوتية لبعض هذه العلامات ، بعد عشر سنوات من العثور عليها ، وجدها تتفق فى تركيبها مع الأبجدية السامية التى ظهرت بعد ذلك .

ولأن هذه الكتابة استخدمت علامات اللغة الهيروغليفية كأحرف أبجدية لها دلالة صوتية محددة ، فقد ساعدت المقارنة بين الطريقة التى كتب بها المصريون الأسماء والكلمات الكنعانية على فك رموزها . تقوم نظم الأبجدية على أساس أن يقوم حرف مكتوب بالدلالة على صوت ساكن ، أو على حركة . وكانت الابجديات السامية منذ ظهورها لا تحتوى إلا على الحروف الساكنة ، وإن استخدمت الألف والواو والياء للدلالة كذلك على حركة ممدودة .

وتم بعد ذلك العثور على مزيد من هذه الكتابات فى سيناء ، حيث عثرت البعثة الفنلندية على بعض النصوص عام ١٩٢٩ ، كما عثرت

بعثة جامعة هارفارد الأمريكية كذلك على نصوص أخرى فى العام التالى ، وأصبح مجموع النصوص الموجودة خمسة وعشرين نصا ، مما أعطى فرصة أكبر لدراسة طبيعة هذه اللغة . وكان هدف الباحثين هو تحديد تاريخ كتابة هذه النصوص ومعرفة الهدف من كتابتها والتعرف على الانتماء السلالى للكتبة الذين قاموا بتدوينها .

يتبين من قراءة هذه النصوص أنها تتعلق بأعمال استخراج حجر الفيروز من مناجم سرابيط الخادم بجنوب سيناء ، وتقديم القرابين - والتى تسمى هنا « طاعة » - إلى بعالات حات حور وبتاح سيدة المنطقة ، وزوجها بتاح سيد منف . ومن نماذج هذه النصوص : « أنت طفن دك م لأبب » ، ومعناها « أنت (يا طافان) (اسم علم معناه أرنب) تجمع إلى (شهر) أبيب » . وكان شهر أبيب هو نهاية موسم العمل فى المنجم بمناسبة حلول فصل الصيف الذى تشتد فيه الحرارة . وهناك نص آخر يقول : « سمعا مرا رب عبد م » معناه سمعا (اسماعيل) مرء (صبى) رب (رئيس) العاملين » . وكذلك : « ضت بطن مط نقب » = « سيدة الثعبان سيد المنجم » ، لقب بعالات هنا هو « ضت بطن » والذى معناه « سيدة الثعبان » ، أما زوجها بتاح فلقبه « مط نقب » = « سيد المنجم » .

ومن الكلمات التى وجدت متكررة فى هذه النصوص : « نقب »

= « حفـرة » أى « منجـم » ، « دبـح » = « ضـحى » ، « أنت » = « أنت » ، « لأخن » = « لأخينا » ، « رب » = « رئيس » ، « أرخت » = « بقـرة » ، « بت » = « بيت » ، ويتم الجمع عن طريق إضافة حرف الميم إلى نهاية الكلمة ، « بتم » = « بيوت » .

وكانت أسماء العلم كثيرا ما تنتهى بألف مثل « سبئ » و « ربئ » و « عبدأ » تمثل هذه النصوص كتابة البروتو سينياتك أول أبجدية عرفها الإنسـان ، استـخدمت الهيـروغليفـيـة المصرية لكتـابة اللغة السـاميـة الشـماليـة الغـربيـة ، التى كانت سـائدة خـلال القرن الخـامس عـشر قـبل الميلاد . أما الكتبة الذين قاموا بنقش هذه النصوص وتدوينها ، فبينـما هم قـد عـبروا عن لغـة كنعـانيـة بكتـابتـهم ـ مما يدل على أنهم كـانوا هم أنفسهم سـاميين ـ إلا أنهـم يمثلون ثقافـة مصرية . فهـم قـد حفـروا شكـل (أبـو الهـول) وبعض التـمـاثيـل الأخرى ـ التى دونـوا كـتـابتـهم عليـهـا ـ على الطريقـة المصرية . بل وإنهم كـانوا يقـدسـون المعـبـودات المصرية ـ بحـسب ما ورد فى هذه النصوص ـ مثل حات حور وبتاح الذى وردت صورته مـع هذه النصـوص . ومن هذا تتضح طبـيعـتهم المصرية السـامـيـة المشـتـركـة . بـل إنـه ظهـر أن اللغـة التى تدل عليـهـا نصـوص سيناء ، هـى ذات اللغـة التـى كـتـبت بالأكـادية المسـمـارية فى رسـائل العمارنة .

وكانت هذه الأبجدية التى ولدت فى سيناء على مقربة بضعة كيلومترات من سانت كاترين وجبل موسى ، هى التى ظهرت بعد ذلك بصورة متطورة فى بيبلوس وبلاد الفينيقيين ، وهى التى نقلها البحارة الفينيقيون إلى شواطىء بلاد الإغريق . ومع أنها عند بداية ظهورها كانت تعبر عن لغة الكلام التى كانت سائدة فى تلك الحقبة من الزمان في جنوب سورية وفينيقيا وفلسطين وسيناء وشمال الجزيرة العربية ، إلا أنها سرعان ما تطورت عن طريق اقتباس الكلمات من شعوب وادى النيل وبلاد الرافدين ، بل ومن شمال أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية كذلك .

ظهور الابجدية

وتكامل الكتابة السامية الأولى

فى اللغة الفينيقية

لم تكن أهمية محاولة طه حسين هى فى النتيجة الخاطئة التى توصل إليها عندما أعلن أن مجمل الشعر الجاهلى كان منحولا ، وإنما تكمن فى أنه هو أول من حاول تطبيق منهج البحث العلمى على تاريخ اللغة العربية وآدابها . فاللغة المكتوبة هى الوسيلة التى مكنت الإنسان من تحقيق التقدم الفكرى ، واللغة هى الجوهر الأساسى للحضارة البشرية التى تنتمى إليها . وبينما كانت منطقتنا العربية تعيش فى حالة من الثبات الفكرى العميق - خلال فترات من حكم آل عثمان الأتراك - حدثت تغيرات جوهرية فى أوروبا خلال عصر النهضة ، أدت إلى بزوغ مرحلة جديدة من الحضارة الإنسانية ، تشع بنورها على أرجاء المعمورة .

ومن المؤكد أن سفر طه حسين للدراسة فى أوروبا واطلاعه على طرق البحث فى جامعاتها ، هو الذى جعله ينادى بتطبيق نفس هذا الأسلوب الأكاديمى عند دراسة آداب اللغة العربية .

وقد أدى هذه الاتجاه إلى اتهام طه حسين « بالانبهار الشديد بالنموذج الغربى فى النهضة والتحديث » .

إلا أن من يقوم بدراسة تاريخ الحضارة البشرية منذ بزغت بنورها فى أرضنا العربية ، ثم انتقلت إلى بلاد الرومان ، وبعد ذلك عادت إلينا مع بداية الدولة الإسلامية ، قبل أن تنتقل عبر جبال البرانس إلى أوروپا ، يجد أن جوهر الفكر الإنسانى كان واحدا فى جميع هذه المراحل . بل إن بداية هذا الفكر قد ولد عندنا قبل أن ينتقل إلى بلاد الغرب .

فمن فينيقيا عرف اليونان فن الكتابة ، ومن مصر وبابل وبلاد الفرس تعلموا قواعد الفكر وأصول الفلسفة ، وفى جامعة الإسكندرية تعلم الغربيون الطب والكيمياء والرياضة . فإذا ما نحن أخذنا بالفكر الأوروپى الحديث ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا ، ولسنا عنها بغرباء . ولا يمكن لعاقل أن يزعم بأن المهندس أو الطبيب أو الچيولوچى العربى يكون منكرا لقيمه الحضارية عندما يتبع نفس الأسلوب العلمى الذى يتعلمه فى دول الغرب . إنما تصبح المسألة أكثر تعقيدا عندما تتعلق

بالفلسفة والعلوم الإنسانية ، فهنا ينزعج البعض ويعتقد أن لنا خاصية مختلفة فى دراسة هذه العلوم .

وما الفكر اليونانى - الذى هو جوهر العلمانية الغربية - إلا نتاج حضارة المنطقة العربية ، فلم يكن الإغريق إلا مترجمين لأعمالنا ناقلين لها ، ولم تكن أثينا هى عاصمة الفكر اليونانى ، بل الإسكندرية . وكانت سلطات الكنيسة الرومانية هى التى قامت - خلال القرن الخامس الميلادى - بحرق كنوز معارفنا القديمة ، التى كان الحكام البطالمة قد جمعوها فى مكتبة الإسكندرية . وبدأ نور المعرفة يخبو عندنا إلى أن جاءت الدولة الإسلامية ، فعمل خلفاؤها - الأمويون فى دمشق والأندلس والعباسيون فى بغداد - ما فعله الملوك البطالمة من قبل ، وانفقوا الآلاف من الدنانير للحصول على النسخ الأصلية من الكتب التى كانت لا تزال مبعثرة فى أشلاء الدولة الرومانية السابقة . وأدى تجميع الكتب إلى ثورة فكرية جديدة ومرحلة من مراحل حضارة الإنسان ، استمرت إلى أن جاء العثمانيون فى القرن الخامس عشر ليلقوا بظلال كثيفة من النسيان على المنطقة العربية ، حتى أن تعلم الكتابة العربية والأدب ، لم يعد متاحا لشبابنا ، عندما أصبحت التركية هى اللغة الرسمية لدواوين الإمبراطورية ، ولولا قلة من رجال الأزهر لاندثرت العربية الفصحى ونسيت آدابها .

هناك فارق أساسى بين قواعد الفكر والمعرفة - التى يشترك فيها البشر جميعاً بصرف النظر عن أصلهم السلالى أو اعتقاداتهم الدينية - وبين إفرازات الوجدان من فنون وآداب ، والتى هى بالضرورة تأتى تعبيرا عن الواقع القومى والاجتماعى لكل أمة ، ونتيجة للقيم الدينية والروحية التى تسود فيها . فبينما يجب علينا أن نرحب بكل خطوة تؤدى بنا للاشتراك مع باقى البشر فى مجال المعرفة ، فإننا نؤكد أن التعبيرات الوجدانية لا تأتى صادقة إلا إذا ما كانت تعبر عن الشعور الذاتى للأقوام التى تنتجها . وحتى هنا يكون تأثرنا بفنون الآخرين - وتأثر الآخرين بفنوننا - عنصرا إيجابيا على كلا الطرفين ، وليس أمرا علينا أن نخشاه ونغلق نوافذنا أمامه . وبينما يعتبر الإنتاج الأدبى العربى تعبيرا عن وجدان شعوبنا ، فإن دراسة تاريخ اللغة العربية وآدابها يجب أن تقوم على أساس من مبادىء البحث العلمى الحديث وقواعد النقد ، التى ظهرت لتطبق على جميع اللغات والآداب الأخرى . ولسوف نرى كيف أن العربية الفصحى ما هى إلا نتاج سلسلة طويلة من التطور والنمو ، ولم تكن لهجة للكلام لأى من القبائل .

كان الاعتقاد السائد حتى بداية القرن العشرين هو أن العبرية هى أقدم الكتابات السامية ظهورا ، إن لم تكن هى أقدم اللغات كلها ، وعنها - ساد الاعتقاد - خرجت الأرامية والعربية . ويرجع الفضل

للأثريين الأوروبيين ، ليس فقط فى العثور على نصوص لغاتنا القديمة واستخراجها من باطن أرضنا ، بل وفى فك رموزها وترجمة نصوصها ودراستها ، بينما نحن عنها غافلون . وجاءت كل الدلائل الأثرية لتشير إلى أن انتشار اللغات السامية كان عن طريق موجات الهجرات التى خرجت من بطن الجزيرة العربية ـ بحثا عن الماء ـ إلى وادى الرافدين والشام وشمال وشرقى أفريقيا ، مع ازدياد عوامل التصحر .

وكانت أول كتابة للغة هى التى ظهرت فى مصر وفى أرض الرافدين ، إلا أن أول أبجدية متكاملة للغة ـ والتى أصبحت أصلا لكتابتنا الحديثة ـ هى التى ظهرت فى بلاد الفينيقيين . وكلمة « فينيقيا » ـ وهى تدل على أرض لبنان الحديثة ـ أصلها كلمة يونانية « فونيكسى » ، أول ما وردت كانت فى كتابات الشاعر الإغريقى « هوميروس » الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكانت فينيقيا تتكون فى العصور القديمة من ممالك المدن مثل « طرابلس » و « الجبيل » (بيبلوس) و « بيروت » و « صيدا » ، وكان سكانها من الأقوام الكنعانية التى جاءت من الجزيرة العربية ، وكان الفينيقيون يتكلمون لهجة سامية شمالية غربية . وأصبحت بيبلوس مركزا للتجارة ـ خاصة فى الأخشاب ـ منذ عصر بناة الأهرامات ، فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، حيث كانت لها علاقات وثيقة

مع مصر ، كما أنها مدت علاقتها إلى وادى الرافدين بعد ذلك، بثلاثة قرون .

وبينما كانت الأكادية المسمارية هى لغة الكتابة الرسمية بين ممالك المنطقة ـ عند منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ـ ظهرت عدة محاولات لكتابة اللغة السامية الشمالية عن طريق استخدام حروف أبجدية . وتمثل الكتابة التى عثر عليها فى سيناء « بروتو سينياتيك » مرحلة انتقال ما بين الكتابة الهيروغليفية المصرية وما بين الأبجدية السامية الأولى . فقد ظهرت البروتو سينياتيك أولا ثم جاءت الأوغاريتية السورية وكذلك بعض المحاولات التى تمت فى فلسطين والأردن ، يقول جيمس هنرى بريستد إن نصوص سيناء تمثل أولى المحاولات لكتابة اللغة السامية والتى هى أصل الأبجدية الفينيقية والسامية الجنوبية .

فقد تبين أن الأبجديات السامية اعتمدت على رموز مأخوذة عن الهيروغليفية المصرية ، وهى التى بلغت شكلها المتكامل فى كتابات الفينيقيين . وكانت السامية الشمالية الغربية تنقسم ـ فى تلك الحقبة ـ إلى ثلاث لهجات رئيسية :الأمورية فى شمال سورية ، والكنعانية فى جنوب سورية وفلسطين ، ولهجة الممالك الفينيقية . كان هناك طريقتان للكتابة فى العالم القديم ، فإذا ما تركنا النقوش التى يتم عملها على

المسلات والمبانى الأثرية القديمة ، فإن الكتابة المصرية كانت تتم عن طريق القلم البسط والحبر وورق البردى ، منذ أول العصور التاريخية ، بينما كانت طريقة الكتابة فى بلدان الهلال الخصيب - نقلا عن السومريين - تتم بضغط قضيب مسمارى على سطح ألواح طينية . ولقد لوحظ انتشار الطريقة المصرية فى الكتابة بالقلم فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الأبجدية السامية .

تم العثور عام ١٩٢٨ مصادفة على نفق أسفل قرية « راس شمرا » التى تقع شمالى مدينة اللاذقية بشمال سورية ، أدى إلى العثور على بقايا مدينة « أوغاريت » القديمة . ووجدت بين الأنقاض ألواح طينية تحمل كتابات قديمة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . تبين أن غالبية هذه النصوص - وإن كانت مكتوبة بالمسمارية البابلية - إلا أنها تمثل أبجدية لم تكن معروفة . واستطاع الباحث الألمانى « هانز باور » والفرنسيان « شارل فيروليود » و « وادوارد دورمى » فك رموز هذه اللغة وقراءة نصوصها . وتحتوى الأبجدية الأوغاريتية على ٢٧ حرفا ساكنا وثلاثة أحرف تمثل حركات الفتحة والكسرة والضمة ، وإن كانت مكتوبة من اليسار إلى اليمين .وبدأت محاولات كتابة اللغة الكنعانية منذ القرن الخامس عشر ق . م ، فقد عثر المنقبون فى الأرض الفلسطينية - فى ما بين الحربين العالميتين - على عدد من النصوص

الكنعانية القديمة يبلغ ١٤ نصا فى مواقع مختلفة من البلاد ، اعتبرها الباحثون نماذج للمحاولات الأولى لكتابة اللغة السامية الشمالية عن طريق استخدام حروف الأبجدية . قال آلان جادنر ووليام أولبرايت بأنها تمثل حلقة الاتصال بين البروتو سينياتيك والفينيقية ووجدت نصوص مكتوبة فى منطقة « بالوعة » بالأردن عام ١٩٣١ ، محفورة على مسلة من الحجر على الطريقة المصرية ، وبها شبه ملحوظ مع النصوص البروتو سينياتك التى وجدت عند سرابيط الخادم .

وفى ١٩٢٣ عثر الفرنسى « بيير مونتيت » فى مدينة بيبلوس الفينيقية على تابوت الملك أحيرام - الموجود الآن بالمتحف الوطنى ببيروت - نقش عليه كتابة فينيقية قديمة جاء به أن هذا تابوت عمله « اتو بعل » ابن أحيرام ملك بيبلوس ، لأحيرام أبيه ليكون مكانه الأبدى . وترجع هذه الكتابة ، التى تعتبر أقدم نصوص الفينيقية المتكاملة ، إلى بداية القرن العاشر قبل الميلاد ، كانت تكتب من اليمين إلى اليسار .

وتتكون أبجدية اللغة الفينيقية من ٢٢ حرفا ساكنا ، وإذا قارنا بين هذه اللغة والعربية الفصحى - التى تتكون من ٢٨ حرفا - لوجدنا أن الحروف الناقصة فى الفينيقية هى « ث » و « خ » و « ذ »

و «ض» و « ظ » و « غ » . وتبين أن الأبجدية الفينيقية ـ مثلها فى هذا مثل اللهجة اللبنانية الحديثة ـ لا تحتوى على أحرف « ث » و « ذ » و «ظ» ، وبينما تنطق الجيم أحيانا « غ » ، فإن حرف « ع » كان يكتب لكل من العين والغين . وكذلك كان حرف « ح » يمثل كل من الحاء والخاء ، وكانت « ص » تمثل كل من الصاد والضاد . وكانت الكتابة الفينيقية هى أول شكل متكامل للغة السامية الشمالية ، ثم جاءت عنها الأرامية واليونانية . فقد وصلت الأبجدية إلى بلاد الإغريق منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، عن طريق البحارة الفينيقيين ، وأضاف إليها اليونان والرومان حروفا أخرى .

النبطيون العرب يستخدمون الارامية
لكتابة لغتهم

يتحدث مصطفى شهاب ، المدرس السعودى ، فى رسالة - نشرتها « الحياة » - عن مظاهر الاختلاف التى لا تزال قائمة حتى يومنا هذا ، بين لغة جنوب الجزيرة العربية ولغة الشمال . ويذكر تجربته الخاصة مع واحدة من لهجات جنوب الجزيرة العربية ، عندما عين مدرسا فى إحدى قرى منطقة جيزان . فهو قد لاحظ أن أداة التعريف عند المتكلمين - ليست هى « ال » العربية الفصحى - وإنما « أم » . كما أنه وجد هناك العديد من الكلمات التى لم يكن يعرف معناها ، حيث أنها لا تستخدم فى الشمال ، فكلمة « قهد » - على سبيل المثال - تعنى « ولد » ، « وقهدة » تعنى « بنت » . كما أن أهل القرية التى عمل بها كانوا يستخدمون الفعل « شاء » بدل من « يبغى » التى تستخدم فى الشمال ، أو من « أراد » العربية الفصحى . إلا أنه أدرك - بالرغم من

تلك الخلافات - أن هذه المفردات « تأتى وسط عبارات عربية صرفة يدركها أى عربى على امتداد الساحة العربية » .

وما أدركه مصطفى شهاب من تجربته الخاصة فى جيزان - بشأن عناصر الاتفاق والاختلاف بين اللهجات الحالية - يلاحظه أى دارس لمجموعة اللغات التى كانت سائدة فى منطقتنا فى الأزمنة القديمة ، فمن الممكن - إلى حد كبير - إدراك طبيعة العلاقة التى كانت قائمة بين اللغات القديمة ، عند المقارنة بين اللهجات العربية التى نستخدمها الآن ، مع ملاحظة ازدياد رقعة الكلمات والتعبيرات المشتركة فى لهجاتنا الحالية بسبب التعليم ووسائل الاتصال والإعلام ، وأثر التطور الحضارى الذى جلب عناصر مشتركة إلى كل هذه اللغات . فمن المؤكد وجود علاقة جوهرية بين كل اللغات السامية ، سواء فى الشمال أم الجنوب وفى الشرق أو الغرب ، بل إن الهيروغليفية المصرية - كما سبق أن رأينا - كانت تشترك مع اللغات السامية فى جوهر تركيبها وبعض كلماتها .

ولاحظ طه حسين عناصر التشابه هذه ، وإن لم تتح له فرصة التعرف على أسبابها ، فهو يقول فى كتابه عن الشعر الجاهلى : « الواقع أننا لا نكاد نعرف صلة متينة بين اللغة العربية التى نفهمها الآن من هذا اللفظ - والتى نريد أن نؤرخ آدابها - ولغات الأمم التى

يعدها بعض القدماء والمحدثين ، عربية حينا وغير عربية حينا آخر .
نعم ! كل هذه اللغات سامية ، وهي من هذه الناحية تتشابه في كثير من الأصول تشابها يقوى مرة ويضعف أخرى .

ولكن اللغة العبرانية سامية ، وبينها وبين اللغة العربية من التشابه القوى حينا والضعيف حينا آخر ، مثل ما بين اللغة العربية (الفصحى) ولغة البابليين فى عصر حمورابى ولغة الحميريين والسبئيين والحبش والأنباط . وإذن فلِمَ لا تكون العبرانية والسريانية والكلدانية ولهجات الآراميين ، كلها عربية كما كانت اللغات واللهجات الأخرى ؟ » .

ويمكننا القول ـ نتيجة للاكتشافات الأثرية الحديثة ـ بأن كلمة « سامية » هنا تعنى « عربية » ، مما يدل على أن العنصر الغالب بين الأقوام التى استخدمت هذه اللغات قديما ، كان هو العنصر الذى ينتمى سلاليا إلى الجزيرة العربية . ولقد رأينا كيف سادت الكتابة الأكادية المسمارية بين ممالك المنطقة العربية خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وكيف أن أول مرحلة لاختراع حروف أبجدية للغات السامية كان فى شبه جزيرة سيناء . وبعد عدة محاولات لتطوير أبجدية سيناء ـ فى فلسطين وسورية ـ ظهرت الأبجدية الفينيقية فى القرن العاشرق .م . فى بيبلوس ، التى أصبحت أساس الكتابة فى بلاد اليونان والعالم

الغربى بعد ذلك . إلا أن اللغة الفينيقية لم تنتشر كثيرا فى منطقة الهلال الخصيب ، وإنما كانت السيادة بعد ذلك للغة أخرى هى اللغة الأرامية السورية ، التى اعتمدت على الأبجدية الفينيقية .

والأرامية هى فرع من فروع اللغات السامية الشمالية الغربية ، سميت كذلك نسبة إلى الأقوام الأرامية التى سكنت أعالى أرض ما بين النهرين . كان الأراميون يمثلون جماعات من أقوام سامية جاءت من منطقة الخليج وانتشرت شمالا فى منطقة الهلال الخصيب تدريجيا منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، جماعات بدوية انتشرت فى المنطقة الصحراوية الواقعة بين نهر الفرات شرقا وجبال لبنان ونهر الأردن غربا . وعندما انهارت دولة « ميتانى » ـ والتى كانت تعرف في المصادر المصرية باسم « نهرينا » أو « نهريم » ـ بأعالى الفرات وانهارت دولة الحيثيين بالأناضول ـ التى كانت تسيطر على هذه المنطقة ـ أمام أقوام البحر ، تمكن الأراميون من الاستيلاء على هذه الأرض وتكوين عدة ممالك هناك ، خلال القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد . وظهرت ممالك المدن الأرامية الصغيرة فى بلاد الرافدين وفى سورية ـ منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد ـ مثل « أرام زوبة » و « أرام معكة » و« أرام ريحوب » و « جشور » و « حلب » و « حمص » و « بيت أدينى » ، ثم امتد وجودهم جنوبا إلى بالميرا (تدمر) ودمشق .

وأول ما جاء اسم أمورو فى المصادر التاريخية كان فى كتابات الملك الأشورى « تجلات بلسر الأول » ، الذى حكم خلال القرن الحادى عشر قبل الميلاد . وذكر الملك الأشورى أنه ـ فى عامه الرابع ١١١٣ ق . م ـ قضى على الأراميين الذين كانوا فى منطقة نهر الفرات ، غربى مملكته . كما جاء ذكر « مات أرام » أى « أرض الأراميين » بعد ذلك فى كتابات ابن هذا الملك الذى خلفه على العرش . إلا أن الأشوريين استطاعوا بعد ذلك ـ خلال حكم شالمانصر الثالث فى القرن التاسع قبل الميلاد ـ إخضاع الممالك الأرامية فى سورية وبابل ووضعها تحت سيطرتها ، وظل الحال كذلك إلى أن انهارت دولة الأشوريين أمام ملوك بابل .

وكان الأغريق هم الذين أطلقوا على الأراميين اسم سوريين ، ويقول هيرودوت أن اسم « سورية » هو الطريقة البدائية لكتابة اسم أشور ، ولكن الباحث الألمانى وينكلار أرجع هذه التسمية إلى كلمة « سورى » التى وردت فى الكتابات البابلية بمعنى « الغرب » .

وبدأ انتشار لغة الأقوام الأرامية مع التجار الذين تجولوا فى منطقة الهلال الخصيب ـ إذ كان الأراميون متخصصين فى أعمال التجارة ـ وأصبحت لغتهم الأرامية هى لغة التعاملات التجارية فى هذه المنطقة ، قبل أن تصبح لغة التعاملات الدبلوماسية كذلك . وبينما كانت الأكادية تستخدم الكتابة المسمارية ذات الأصل السومرى ، فإن الأرامية

استخدمت الأبجدية الفينيقية لكتابة لغتها بالحبر والقلم اتباعا للطريقة المصرية . وبحسب قول الباحث الأمريكى وليام أولبرايت ، فإن الأرامية بدأت عند بداية الألف الأولى السابقة على الميلاد .

وعثر المنقبون على العديد من النصوص الأرامية فى شمال سورية ، كما تم العثور على مكتبة أرامية تخص الجالية اليهودية التى كانت تعيش فى جزيرة فيلة ـ التى تقع فى وسط النيل عند أسوان ـ ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد . وكذلك تم العثور عام ١٨٨٣ على حجر فى « تيماء » بشمال الجزيرة العربية ـ موجود الآن بمتحف اللوفر فى باريس ـ وجدت عليه كتابة باللغة الأرامية . وأهمية هذا الحجر أنه يحمل أقدم كتابة عثر عليها حتى الآن فى هذه المنطقة ، إذ أنه يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، نقش بمناسبة إقامة معبد جديد فى تيماء .

وتتكون الأبجدية الأرامية من ٢٢ حرفا ساكنا ، تتفق مع الحروف الفينيقية ، وتختلف أداة التعريف فى الأرامية عنها فى العربية ، فبدلا من « ال » التى تسبق الكلمة فى العربية ، فإن الألف الممدودة تأتى فى نهاية الكلمة الأرامية المفردة ، فتصبح كلمة « ملك » عند تعريفها « ملكا » . ومثل باقى العائلة السامية ، تعتمد الأرامية فى كلماتها على المصدر ، والذى غالبا ما يتكون من ثلاثة أحرف ، كما يتم تغيير المعنى عن طريق تغيير الحركات . ومع نهاية القرن السابع

قبل الميلاد كانت اللغة الأرامية قد حلت محل الأكادية فى التعاملات الرسمية فى كل منطقة الهلال الخصيب ، فأصبحت هى لغة التكاتب بين شعوب المنطقة .

وعندما كون الفرس إمبراطوريتهم بعد ذلك بقرنين ، أصبحت الأرامية هى اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية ، وعمل هذا على توحيد الكتابات الأرامية ، إلا أنه بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية أمام الإغريق ، بدأت الكتابات الأرامية تتخذ أشكالا محلية فى البلدان التى استعملتها ، فظهرت أفرع عديدة عن الأرامية ، منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد . وتفرعت عنها عدة كتابات ، مثل العبرية ـ التى ما هى إلا لغة الكلام الكنعانى مكتوبة بحروف أرامية ـ والنبطية والتدمرية (لغة بالميرا بصحراء سورية) والسريانية .

ومن نماذج الكتابة الأرامية نص ورد فى سفر « دانيال » من العهد القديم ، يقول : « دانيئل بارك لألا شميا » والتى تعنى « دنيال بارك إله السماء » و « ملة ملكا » بمعنى « كلمة الملك » .

واختفت اللغة الأرامية تدريجيا فى العصر الإغريقى عندما حلت الكتابة اليونانية محلها فى التعاملات الرسمية ، وإن استمرت لعدة قرون بعد ذلك فى أرض النبطيين بشمال الجزيرة العربية ، وفى فلسطين حتى مجىء الإسلام وبين الطوائف اليهودية فى بلاد الرافدين . وتمثل الكتابة

السريانية إحدى لهجات الأرامية ؛ استخدمها مسيحيو الشام ، بل إنها انتشرت شرقا إلى حدود الهند والصين ، وشمالا فى بلاد الأناضول ، كما وجدت كذلك بين الطوائف المسيحية فى مصر والجزيرة العربية .

أما النبطيون ، فهم أقوام سامية كانت تقيم فى شمال الجزيرة ، فى تيماء والحِجْر (مدائن صالح) والعلا ، تمكنت من الانتشار فى منطقة شرق الأردن منذ أيام الإمبراطورية البابلية . وقام الأنباط فى خلال القرن السادس قبل الميلاد بمد نفوذهم على منطقة أدوم بجنوب فلسطين - الواقعة بين الأردن وسيناء - وجعلوا عاصمتهم فى مدينة البطراء ، وكلمة « بطراء » ، تعنى الصخرة ومنها جاء اسم « بطرس » ، حيث أنها بنيت فوق صخرة عالية على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم . وأصبحت البطراء - التى كثرت بها عيون الماء - محطة هامة فى طريق القوافل التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وسواحل الشام .

واستطاع النبطيون تكوين مملكة هامة تمكنت من مد نفوذها لتصل من وسط الجزيرة العربية إلى نهر الفرات ، كما أخضعت جنوب سورية ومملكة دمشق - فى عهد الملك الحارث الثالث - عام ٨٥ قبل الميلاد . وبهذه الطريقة سيطر النبطيون على طرق التجارة التى كانت تأتى من الجزيرة العربية إلى الشام ومصر وأوروبا ، ومن الصين والهند واليمن ، ولذلك فهم قد حققوا أرباحا كبيرة .

ويقول المؤرخ اليوناني « ديودوس الصقلي » إن القائد اليوناني « أنتيجنوس » - الذي حكم سورية بعد موت الإسكندر - أرسل فرقة حربية عام ٣١٢ ق . م . ، بقيادة « أثينيوس » إلى البطراء عاصمة النبطيين » . ولما وصل الجنود اليونان إلى المدينة ، لم يجدوا غير النساء والأطفال بها ، إذ كان الرجال قد خرجوا إلى البر . فاستولى اليونان على كل ما وجدوه وتركوا البطراء ، إلا أن الرجال - الذين وصلهم الخبر بعد ذلك - أسرعوا ولحقوهم فى الطريق وأقاموا لهم كمينا ، هزموهم فيه واستعادوا ما استولى عليه اليونان . وعاد اليونان فأرسلوا جيشا آخر فى نفس العام إلى عاصمة النبطيين ، ولكنهم منوا بالهزيمة هذه المرة كذلك . وعندما قامت الإمبراطورية الرومانية ، أصبحت مملكة النبط حليفة للرومان ودفعت لهم الجزية ، وفى عام ٢٤ ق . م .، حاول الإمبراطور أغسطس مد نفوذه على جنوب الجزيرة العربية ، فأرسل جيشا من عشرة آلاف رجل بقيادة « أوليوس جاليوس » ، بمساعدة « عبيدة الثالث » ملك النبط . وكان الهدف من هذه الحملة السيطرة على طرق التجارة لصالح روما . ولكن الجيش وجد صعوبة فى مسيرته فتوقف عند نجران ، حيث قرر الرومان استخدام المراكب للعودة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، دون تحقيق الهدف من الرحلة . ولم يفلح الرومان فى إخضاع النبطيين إلا عند بداية القرن الثانى الميلادى ،

عندما احتل جيش الإمبراطور « ترايان » البطراء ، التى جعلها عاصمة لولاية « عرابيا » عام ١٠٦ ، وانتهت دولة الأنباط منذ ذلك التاريخ .

كان النبطيون يتحدثون العربية واستخدموا اللغة الأرامية فى كتابة لغتهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وتم العثور على العديد من النصوص النبطية فى شمال الجزيرة العربية وفلسطين وسيناء . وهذا جزء من نص نبطى عثر عليه فى البطراء و يرجع إلى القرن الأول السابق على الميلاد ، وهو يقول :

« قبرا دنه وصريحا دادى به وصريحا هيدادى جوا منه ودى به بنى مقبرا ودى بهن جوحيا .

وكركادى قدم بتى وبوتا وبتيا دى به وجنت سم أوبأروت ميا وقوهتا ومفيهن » .

وترجمته :

« القبر هذا وصالته الكبيرة هذه والصالة الصغيرة بداخله ، والمقبرة التى بنيت بداخلها بشكل جوحيا .

والحوش الذى (هو) قُدَّام البناء والسقف والحفر بداخله والجنَّت (الحديقة) ومكان وضع الطعام وآبار المياه والشرفة والحوائط » .

الثمودية واللحيانية والددانية
لغات قبائل العرب البائدة في الشمال

تتضح لنا أهمية أسلوب طه حسين فى بحثه عن أصل اللغة العربية وآدابها ، عندما نقارن بينه وبين طريقة لويس عوض فى دراسته لفقه اللغة العربية ، بعد ذلك بنصف قرن من الزمان . فبينما أدى منهج طه حسين به إلى الشك فى الروايات القديمة المتعلقة بأصل الأقوام العربية ، فإن لويس عوض قد قبل هذه الرواية على أنها قضية مسلمة . يقول طه حسين فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » ، صفحة ٨٣ إنه من « الإسراف وازدراء العقل والعلم أن نطمئن - فى غير تحفظ ولا احتياط - لما كان القدماء قد اتفقوا عليه من أن العرب منقسمون إلى بائدة وباقية ، فالبائدة هى عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق ومن إليهم ، والباقية تنقسم إلى عاربة ومستعربة ، فالعاربة قحطان والمستعربة عدنان » .

أما لويس عوض فيتخذ موقفا مخالفا فى هذا الموضوع ، فهو يقول

فى الصفحة ٢٥ من كتابه عن فقه اللغة العربية : « العرب حين يتحدثون عن منشئهم يقسمون أنفسهم إلى ولد عدنان وهم عرب الشمال ، وولد قحطان ، وهم عرب الجنوب . وهناك فكرة متوارثة أن نسل يعرب بن قحطان ، أصفى عروبة من نسل عدنان ، ولذا جاء تبويب العرب إلى عرب عاربة ، وهم أهل الجنوب ، وعرب مستعربة وهم أهل الشمال ، ومن العلماء من يؤيد هذه النظرية بما تتضمنه من اعتراف بأن عرب الشمال من أجناس كانت غير عربية ثم استعربت أو أنهم مولدون من العرب وغير العرب » .

ونحن نرى أن اسم العرب أول ما ورد فى المصادر الأشورية - خلال القرن التاسع قبل الميلاد - كان يطلق على بعض ممالك شمال الجزيرة ، بينما كانت ممالك الجنوب تعرف بأسمائها من معينية وسبئية وحميرية ، ولم يستخدم اسم العرب للدلالة على كل ممالك الجزيرة إلا منذ العصر الروماني . وليس هناك فى المصادر القديمة ما يفسر لنا دلالة اسم العرب ، وإن كنت أرجح علاقة هذا الاسم بالأسد . فقد كان الأسد يعتبر رمزا طوطميا لقبائل شمال الجزيرة ، له أسماء عديدة فى لغاتهم وردت فى الكثير من أشعار الجاهليين الذين تغنوا بالأسد . ومن الأسماء القديمة لهذا الحيوان اسم « عر » الذى منه تأتى « عرين » و « ذعر » ، وتكون « عرب » دلالة على انتماء هذه الأقوام إلى الأسد .

وليس هناك من الأدلة التاريخية ما يؤيد ما يقال من أن عرب الشمال كانت مستعربة ، إلا اعتمادا على القصة التوراتية التى تنسب إبراهيم - الجد الأكبر للعرب - إلى بلاد الكلدانيين . وهذه الرواية لا تقوم على أساس من التاريخ ، وإنما مصدرها أن كتبة التوراة خلال القرن السادس قبل الميلاد كانوا من يهود بابل الذين أرادوا أن ينسبوا أصلهم إلى نفس تلك البلاد . بل وهناك إشارات عديدة فى التوراة نفسها إلى أن قوم إبراهيم وإسماعيل كان موطنهم هو بلاد المديانيين ، بشمال الجزيرة وسيناء . فالعرب إذاً هم عرب شمال الجزيرة ، وإن أصبح هذا الاسم يطلق على كل سكانها منذ العصر الرومانى .

وفى ما يختص بتقسيم العرب إلى بائدة وباقية يقول طه حسين ، فى كتابه عن الأدب الجاهلى أننا « لا نعرف من عاد وثمود إلا ما أخبرنا به القرآن ، ونحن نجهل لغتهم جهلا تاما ، ولا نستطيع بوجه من الوجوه أن نقرر فى أمرهم شيئا » . إلا أن هناك الآن العديد من الأدلة التاريخية واللغوية التى تتحدث عن ممالك العرب البائدة ، وعذر طه حسين هو أن هذه المعلومات لم تتم ترجمتها وتفسيرها ، إلا بعد كتابة « فى الشعر الجاهلى » .

فثمود هى إحدى الممالك العربية التى اختفت قبل الإسلام ، والتى

ورد ذكرها فى بعض المصادر القديمة . فقد جاء اسم « ثمود » بين الأقوام التى أخضعها « سراجون » ملك أشور عام ٧١٧ قبل الميلاد فى وسط الجزيرة العربية . كما سماهم المؤرخون اليونان « ثموداى » ، وذكر « بلينى » أنهم كانوا يسكنون فى منطقة « دوماثا وهجرا » ، التى هى دومة الجندل بالجوف والحجر شمالى العلا ، بشمال الحجاز .

وتتفق الروايات العربية على وجود ثمود فى هذه المنطقة ، كما ذكرهم بعض شعراء الجاهلية مثل الأعشى وأمية بن أبى الصلت . وفى القرآن جاء ذكر ثمود فى سورة الأعراف وسورة هود وسورة الحجر وسورة القمر ، حيث كان لهم نبى اسمه صالح وكانوا ينحتون فى الجبال بيوتا . وتقول الروايات والتفسيرات العربية ، بأن النبى صالح بن عبيد بن عامر بن سام كان يعيش بين الثموديين ، عندما تحداه خصومه - بقيادة جندع بن عمر - أن يعطيهم علامة تثبت نبوته ، فأخرج لهم من الصخر ناقة ، ولكنهم ذبحوها فعاقبهم ربهم وقضى عليهم .

ويرجع الفضل فى التعرف على تاريخ الثموديين إلى الاكتشافات الأثرية الحديثة ، حيث تم العثور على كتابات ثمودية وترجمتها . فقد وجد الأثريون والرحالة المسافرون - فى المنطقة الممتدة من المدينة إلى دمشق - العديد من النصوص المنقوشة على الحجر ، ترجع إلى عصور ما

قبل الإسلام . وتبين أن هذه النصوص مكتوبة إما بلغات جنوب الجزيرة - السبئية والمعينية والقتبانية - أو بلغات شمال الجزيرة ، الددانية والثمودية واللحيانية والصفائية ، وهذه اللغات - وإن كتبت كلها بخط المسند - إلا أنها تختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا جوهريا ، وهناك بعض الحروف تقرأ بطريقة مختلفة تماما فى هذه اللغات .

وحتى الآن ، تمكن الأثريون من تجميع ما يزيد على ألفى نص مكتوب باللغة الثمودية ، فى الجوف وتيماء ومدائن صالح والعلا وكلها بشمال الحجاز ونجد .

إلا أن « ددان » سبقت مملكة الثموديين ، وكانت عاصمتها هى « العلا » الحالية ، وكانت من المحطات الهامة على الطريق التجارى بين الجنوب والشمال ، حيث كونت دولة مستقلة لفترة من الوقت ، قبل منتصف الألف الأولى السابقة على الميلاد . وفى العلا تم العثور على النصوص الددانية ، والتى تبين أنها أقدم كتابات شمال الجزيرة ، ويرجعها الأثرى الأمريكى « وليام أولبرايت » إلى نفس الفترة التى فيها ظهرت السبئية فى جنوب الجزيرة . أما اللحيانيون - الذين يعتقد البعض أنهم كانوا من بقايا ثمود - فقد حلوا مكان ددان فى العلا ، عندما هزموهم فى نفس الوقت الذى فيه خرج ملوك فارس لمد حدود إمبراطوريتهم غربا ، وكونوا مملكتهم هناك التى استمرت عدة قرون ،

إلى أن أخضعهم النبطيون فى محاولتهم مد نفوذهم جنوبا .

وتحتوى الكتابات اللحيانية - التى تم العثورعلى غالبيتها فى منطقة وادى العلا خاصة عند « الخريبة » جنوبى الحجر (مدائن صالح) - على أسماء بعض ملوكهم .

عثر على ثلاثة نصوص نبطية عند تيماء تذكر اسم « مسعودو » ملك لحيان - الذى كتب اسمه بحروف نبطية خلال القرن الثانى قبل الميلاد - وترجع هذه النصوص إلى ما قبل غزو النبط النهائى لمملكة ددان .

ومن أهم ما تم العثور عليه عند فتحة أحد الجبال بالقرب من « بئر عذيب » غربى « الخريبة » ، كان مجموعة من النصوص تتعلق بمعبد « ذو غابت » ، وهو المعبود الرئيسى للحيانيين ، إلى جانب معبودات أخرى مثل « ها لاه » و « لات » و « سلمان » و « ود » .

ومن الملاحظ أ ن الكتابات اللحيانية تبدو مختلفة فى مراحلها الأخيرة - عند القرن الميلادى الرابع - عنها فى مراحلها الأولى قبل ذلك بحوالى تسعة قرون . وتعتبر النصوص اللحيانية كتابات عربية ، وإن كان هناك بعض الخلافات بينها وبين العربية الفصحى ، فعلى سبيل المثال كانت أداة التعريف هى « ها » أو « هن» كما يتبين من هذا المثال

الثمودى : « لباتر ها ثمد » ، وتعنى « لباتر الثمودى » . ومن الواضح أن حرف الجر « ل » يستخدم كثيرا فى هذه الكتابات ، والذى أحيانا يعنى « إلى » وأحيانا « حتى » ، وهو هنا يعنى « حق » الدالة على الملكية .

وعلينا أن نتذكر أنه ـ فى هذه المرحلة ـ لم تكن الواو والياء قد استخدمتا بعد للدلالة على الحركة الممدودة ، وإن كانت الألف قد استخدمت أحيانا لهذا الغرض . وهكذا فإن الكتابات السامية الجنوبية ظهرت في جنوب الجزيرة العربية وفى شمالها . فكانت كتابات الشمال كما رأينا هي الددانية والثمودية واللحيانية ، وكذلك الصفائية التي تأتي غالبيتها من منطقة الصفا جنوب شرقي دمشق ، وترجع إلى القرنين الأولين بعد الميلاد ، كما تمثلت لغات الجنوب فى المعينية والسبئية والحضرمية والحميرية ، وتفرعت عنها اللغات الحبشية .

وهناك عدة آراء في ما يختص بأصل هذه الكتابات ، يعتبر الباحثون « جريم » و « نيلسون » و « سيث » ، أن الثمودية هى أول لغات شمال الجزيرة ، كما أنها أصل اللغات الجنوبية السبئية والمعينية والقتبانية . وهو يعتبر أن الثمودية تطورت عن البروتو سينياتيك ، التى عثر عليها عند سرابيط الخادم . بينما يعتقد الفرنسى « موريس دودان » بأنها تطورت عن كتابة بيبلوس الفينيقية ، حيث وجد تشابها بين

الحروف ، وبسبب التشابه الواضح بين كتابات الجزيرة العربية وكتابة بيبلوس الفينيقية من جهة ، وكتابات سيناء من جهة أخرى ، فقد ربط الباحثون بين هذه اللغات . وبينما قال البعض بتفرع كتابات الجزيرة عن الفينيقية مباشرة ، أرجع البعض الآخر هذا التشابه إلى أن لغة سيناء كانت هى الأم لكلٍ من الفينيقية وكتابات الجزيرة . يقول وليام أولبرايت إنه « بالنظر إلى ما نعرفه عن طريقة التطور التى حدثت للبروتو سينياتيك فى كنعان منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ...فإنه من المستحيل لنا أن نفترض أن الكتابة البروتو عربية (أى الأصل الأول للكتابات العربية) تشعبت عن الكنعانية بعد ذلك التاريخ .

وهكذا فإن لدينا مدة ألف عام ما زالت كتابتها (العربية) تاريخا أثريا غير معروف يجب العثور عليه حتى (وقت) ظهور الشعبة العربية حوالى ٧٠٠ ق . م . » .

وهكذا فإن أولبرايت . والذى يعتبر أحد الخبراء المهمين فى تاريخ المنطقة العربية ولغاتها . يعتقد أن البداية الأولى للغة العربية لابد وأنها كانت منذ أن ظهرت كتابة سيناء فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وهو يعتقد بإمكان العثور على دلائل أثرية فى المستقبل ، يمكن أن تكشف لنا عن مراحل التطور الأولى لهذه

اللغات . ويميل أولبرايت إلى اعتبار الكتابات التى ظهرت فى شمال الجزيرة كانت - ليست فقط هى الأسبق - وإنما كانت كذلك هى الأصل الذى عنه تفرعت الكتابات الجنوبية .

وأول رسالة عربية معروفة ، أرسلها شخص من ثمود إلى ثمودى آخر من مقيمى بيبلوس (الجبيل) بلبنان ، وجدت منقوشة على حجر صغير ، تم العثور عليه هناك - كان الاعتقاد السائد فى بداية هذا القرن هو أن كتابات شمال الجزيرة ، مصدرها كتابات جنوب الجزيرة ، انتقلت شمالا مع التجار ، خاصة وأنه قد تبين وجود جالية معينية من الجنوب كانت مقيمة فى العلا ، وكان الباحث اللغوى الألمانى « جريم » ، هو أول من رفض هذا التفسير . فهو قد قسم اللغة الثمودية إلى مرحلتين مختلفتين ، وذهب إلى أن المرحلة الأولى للثمودية بدأت منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد ، وهذه المرحلة - فى رأيه - تمثل مرحلة الانتقال بين كتابة سيناء وبين لغة جنوب الجزيرة ، لأن الثمودية كانت أقرب لكتابة سيناء من كتابات الجنوب الثمودية ، إلا أن الباحث البريطانى « وينيت » - المتخصص فى اللغات السامية القديمة - استطاع إثبات انقسام الثمودية إلى أشكال مختلفة تمثل مراحل تطورها ، كما بين أن أول مراحل الكتابة

الثمودية تشبه إلى حد كبير الكتابة الددانية ، مما يجعل الددانية أسبق فى الظهور . ويعتقد وينيت أن وجود العديد من أنواع الكتابة الثمودية واللحيانية يدل على مرورها بمراحل متعددة خلال مدة زمنية طويلة من التطور « ويشير بكل وضوح إلى تطور طويل لفن الكتابة فى الجزيرة العربية » .

ظهور الابجدية العربية
فى كتابات انباط الشمال

عندما أثار طه حسين تساؤلاته منذ ٧٠ عاما مضت عن الشعر الجاهلى واللغة العربية الفصحى ، لم يكن رجال الآثار وعلماء اللغات قد انتهوا بعد من ترجمة ودراسة الكتابات القديمة التى عثر عليها فى بلادنا ، منذ منتصف القرن التاسع عشر . ولهذا فلم تكن هناك إجابات مقنعة للقضايا التى أثارها عميد الأدب العربى .

ومما زاد الأمور تعقيدا أن طه حسين - فى محاولته إثبات قضيته الأدبية - قد لجأ إلى الاستشهاد بنصوص دينية ، والتعرض لتاريخية بعض القصص التى وردت فيها ، مما أدى إلى خروج المناقشة التى أعقبت ظهور « فى الشعر الجاهلى » عن حدود البحث الأكاديمى والمناقشة الحرة للقضية المطروحة .

ويتعلق جوهر القضية التى أثارها طه حسين بطبيعة الشعر المنسوب

إلى الجاهليين ، وهل هو منحول مزيف فى مجمله أم أنه - وإن كان بعضه منحولا - فى معظمه يمثل أدبا جاهليا حقيقيا ؟ والسبب الذى جعل الباحث المصرى يثير هذا السؤال ، هو التناقض الذى وجده فى روايات القدماء ، فبينما هم يقولون بأن اللغة العربية الفصحى كانت هى لهجة الكلام لدى قبيلة قريش فى مكة ، إلا أن روايتهم للشعر الجاهلى - والمفروض أنه نظم قبل الإسلام - جاءت مكتوبة بهذه اللغة : « فالرواة يقولون إن الشعر تنقل فى قبائل عدنان من ربيعة إلى قيس ثم إلى تميم التى ظل فيها إلى ما بعد الإسلام وعصر بنى أمية حين نبغ الفرزدق وجرير . ومع هذا فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرا من تباين اللهجات .

وكان من الطبيعى لو كان لكل قبيلة من القبائل العدنانية لغتها أن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات فى شعر هذه القبائل الذى قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة . ولكننا لا نرى شيئا من ذلك فى الشعر العربى الجاهلى . فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التى يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلى الصحيح ، فسترى أن فيها مطولة لامرىء القيس وهو من كندة أى من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعنترة ، وغيرها للبيد ،

وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لطرفة ، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة وكلهم من ربيعة ... تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينا في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ...

فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان ، لا في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي ، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملا . ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى ، فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان ، يعترف القدماء أنفسهم بذلك ... ويثبته البحث العلمي » .

وكان تعليق مصطفى صادق الرافعي هو رفض قبول منهج طه حسين في البحث ، فهو « يريد أن يأخذ النشء بذلك اتباعا لمذهب ديكارت الفلسفي الذي يقضي على الباحث بالتجرد من كل شيء عندما يبحث عن الحقيقة ... وهذا لعمري هو منتهى الجهل » .

كما لم يعترف الشيخ محمد الخضرى بوجود خلاف جوهرى بين اللغات العربية ، فنحن « نستطيع أن نسلم أنه كان هناك خلاف بين لغة حمير وعدنان ... مع هذا التسليم نقول له : إن هذا لا يفيدك شيئا ! لأن القحطانيين الذين وصل إلينا شعرهم ، إنما هم من أبناء سبأ بن يعرب ثم من كهلان ، (الذين) تركوا بلادهم قبل الهجرة بأكثر من قرنين بعد سيل العرم ونزحوا إلى الشمال : منهم اللخميون ملوك الحيرة ، والغسانيون ملوك الشام . وسكان يثرب وغيرهم من قبائل الأزد ، وممن هاجر بطون طيئ سكان الجبلين أجا وسلمى ، وبطون من كندة الذين ملك بنوهم على قبائل من عدنان ... أفليس هذا كافيا لأن تتمازج اللغات وتتحد الألسنة ؟ » .

ولأن نشوء الأدب العربى يتعلق بظهور الكتابات العربية ، التى بدورها ترتبط بتاريخ تطور الكتابة بشكل عام ، فقد كانت بدايتنا للبحث عن إجابة على تساؤلات طه حسين منذ اختراع الكتابة المسمارية فى سومر واللغة الهيروغليفية فى مصر ، قبل نهاية الألف الرابعة السابقة على الميلاد . ورأينا كيف استعملت شعوب منطقة الهلال الخصيب ـ خلال الألف الثانية قبل الميلاد ـ اللغة الأكادية فى كتابتها ، وإن اختلفت عن لغة الكلام فى هذه البلاد . وأصبحت اللغة الأكادية المسمارية هى لغة الكتابة الرسمية فى منطقة الهلال الخصيب ،

كما أصبحت هى اللغة الدبلوماسية التى يستخدمها الملوك فى التكاتب والتراسل .

وهكذا نجد أنه منذ الزمن السحيق ، أصبحت هناك لغة خاصة للكتابة والأدب ـ مشتركة بين الأمم ـ تختلف عن لغات الكلام فى كل منها . إلا أن بداية الكتابة التى تطورت عنها العربية فيما بعد هى التى وجدت بقاياها فى شبه جزيرة سيناء ، وعرفت باسم « بروتو سينياتك » ، والتى ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وأهمية هذه الكتابة هى أنها ـ وإن اعتمدت على شكل الرسوم الهيروغليفية ـ إلا أنها كانت أول كتابة أبجدية ، استخدمت لكتابة كلام العرب ، وهى بحق الكتابة الأم لكل ما ظهر بعد ذلك من كتابات عربية سواء فى بلاد الشام أو فى الجزيرة العربية .

وفى القرن الثامن قبل الميلاد ، ظهرت أنواع جديدة للكتابة فى الجزيرة العربية وفى بلاد الشمال ، فقد ظهرت خمس لغات مكتوبة فى جنوب الجزيرة العربية هى : المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية والحضرمية . وهناك خلاف بين اللغويين فى تحديد أصل لغات الجنوب العربية ، فبينما تتفق الأغلبية على أن الأبجدية السبئية هى أم اللغات الجنوبية كلها ، ساد الاعتقاد أنها تفرعت عن أبجدية شمال الجزيرة . أما

اللغات التى ظهرت فى شمال الجزيرة فهى الددانية واللحيانية والصفائية ، وهذه اللغات - وإن كتبت كلها بخط المسند - إلا أنها تختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا جوهريا .

ونفس تلك الفترة حلت الأرامية السورية فى بلاد الشمال محل الكتابة الأكادية ، حيث أصبحت الأرامية هى لغة التعاملات التجارية فى هذه المنطقة ، قبل أن تصبح لغة الخطابات الدبلوماسية كذلك . وعندما كون الفرس إمبراطوريتهم بعد ذلك بقرنين - التى امتدت من الهند فى الشرق إلى وادى النيل فى الغرب - أصبحت الأرامية هى اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية بأكملها ، إلى أن سقطت الدولة الفارسية أمام الإغريق . وهنا بدأت الكتابات الأرامية تتخذ أشكالا محلية فى البلدان التى استعملتها ، فظهرت أفرع عديدة عن الأرامية منذ بداية القرن الأول السابق على المسيحية ، مثل الكتابات العبرية الجديدة والنبطية والتدمرية والسريانية .

وبالرغم من سقوط دولة الأنباط أمام القوات الرومانية فى بداية القرن الميلادى الثانى ، إلا أن الكتابة النبطية استمرت بعد ذلك حوالى ١٥٠ عاما خاصة فى شبه جزيرة سيناء ، وجد عدد كبير من هذه الكتابات خاصة فى منطقة « وادى المكتب » بالقرب من سرابيط الخادم ، وكذلك

فى « وادى حجاج » بالقرب من سانت كاترين .

كان النبطيون يتحدثون العربية واستخدموا الأبجدية الأرامية فى كتابة لغتهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وتم العثور على العديد من النصوص النبطية فى شمال الجزيرة وفلسطين وسيناء . حاول الباحثون تفسير ظاهرة انتشار الكتابة النبطية المنقوشة على الصخور فى مناطق عديدة من سيناء بالرغم عن سقوط دولتهم ، واقترح البعض أن الرومان كانوا يستخدمون الأنباط العرب للقيام بأعمال المناجم فى سيناء ، لتعليل وجود الكتابات النبطية هناك .

إلا أنه يتبين وجود عدد كبير من بقايا الفخار النبطى فى نفس هذه المواقع ، مما يدل على وجود أقوام نبطية مستقرة هناك ، كما يبدو أنه كان لهم مواقع مقدسة عند جبل موسى ودير سانت كاترين ، مما حدا بالبعض إلى القول بأنهم كانوا فى تلك الفترة مواطنين مقيمين فى المنطقة وليسوا زوارا بها .

إلا أن الكتابة النبطية فى سيناء سرعان ما بدأت تختفى تدريجيا ويحل محلها - منذ النصف الثانى من القرن الثالث - نوع آخر من الكتابة الرقعة أطلق عليه اسم « نيو سينياتيك » . وتم العثور على نماذج عدة من هذه الكتابة خاصة فى وادى « مكتب » بالقرب من « أبو زنيمة » .

وتعتبر كتابة سيناء الجديدة هذه بمثابة حلقة الاتصال بين الكتابة النبطية والكتابة العربية . وبدأت الأبجدية العربية تتكامل في شكلها بعد ذلك بفترة وجيزة ، وجاء ظهورالكتابة العربية منذ نهاية القرن الثالث للميلاد . أقدم ما تم العثور عليه من عربية شمال الجزيرة ، ثلاث كتابات وجدت منقوشة على جدار معبد « ارم » عند العقبة ، وكتابات أخرى فى « أم الجمال » ، كما وجدت كتابات عربية كذلك فوق قبر امرىء القيس الذى مات عام ٣٢٨ .

كانت غالبية النصوص العربية القديمة عبارة عن عدة كلمات أو جمل قصيرة ، إلا أن الأبجدية الجديدة بدأت تستخدم بعد ذلك فى كتابة النصوص الأدبية ، خاصة فى ما يتعلق بكتابات الجماعات العربية المسيحية التى كانت تعيش فى سورية وفى الحيرة . ومن أقدم هذه الكتابات نص وجد فى جنوب شرقى مدينة حلب ، مكتوب بثلاث لغات سريانية ويونانية وعربية ، يرجع إلى عام ٥١٢ ميلادية ، وكتابات كنيسة هند فى الحيرة التى ترجع إلى عام ٥٦٠ ، وأخرى يونانية عربية فى حران بجنوب دمشق ترجع إلى ٥٦٨ .

وهناك بعض الروايات التى تقول بأن الأبجدية العربية قد ظهرت لأول مرة فى الحيرة ، التى كانت مركزا ثقافيا هاما فى تلك الفترة . وكانت

الحيرة هى عاصمة المملكة اللخمية العربية المسيحية التى تكونت فى منطقة خصبة بالقرب من نهر الفرات . وأصبحت الحيرة مملكة هامة استمرت لمدة ثلاثة قرون قبل الإسلام ، إلا أنه بعد موت النعمان الثالث عام ٦٠٢ ، حكمها ملك من الفرس قبل أن يفتحها جيش المسلمين بحوالى نصف قرن .

ومن الأسباب التى يعتمد عليها هذا الرأى ظهور نوعين من الكتابة العربية فى خط « النسخ » والخط « الكوفى » وهناك رأى آخر يقول بأن هذين الخطين تطورا بشكل مستقل عن الكتابة النبطية ، بحيث ظهر النسخ فى الحجاز والكوفى فى جنوب العراق . وكان الخط الكوفى يستخدم للكتابة على الحجارة ، وخاصة على جدران المساجد ، وكذلك على العملات النقدية المعدنية ، أما النسخ فكان يستخدم فى كتابة البرديات .إلا أن مدينة الكوفة لم تكن موجودة قبل ظهور الإسلام ، إنما أقامها المسلمون فى جنوب العراق لتكون قاعدة للجيش العربى هناك ، بناها سعد بن أبى وقاص عام ٦٣٨ ، فأصبحت بمثابة العاصمة للدولة الإسلامية فى العراق حتى بنى العباسيون بغداد ، كما أنها صارت مركزا هاما للثقافة الإسلامية لمدة ثلاثة قرون .

ليس ظهور الأبجدية العربية الحديثة ـ فى نهاية القرن الثالث ـ دليلا

على أن اللغة العربية نفسها بدأت فى ذلك التاريخ ، فقد كان العرب يتحدثون بلغتهم هذه منذ مئات السنين قبل ذلك . كما أن الكتابات القديمة ـ البائدة ـ التى انتشرت فى شمال الجزيرة وجنوبها ، سواء أكانت بالخط المسند أم بالحروف الأرامية ، إنما هى كتابات عربية ، فقد كتب المصريون لغتهم بالهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية والقبطية .
إلا أن ظهور العربية الفصحى لابد وأن يرتبط بظهور الأبجدية العربية الجديدة ، وهذا ما سنراه فى ما بعد .

شعراء الجاهلية فى نجد
ينشئون اللغة العربية الفصحى

عندما تم تعيين الدكتور طه حسين أستاذا للأدب العربى بجامعة القاهرة بعد عودته من البعثة الدراسية إلى باريس ، أراد وضع برنامجا دراسيا يتعلم الطلاب على أساسه تاريخ الأدب العربى . وأدرك طه حسين وجود روايتين متعارضتين بخصوص الأدب الجاهلى الذى كان سائدا فى جزيرة العرب قبل الإسلام . فبينما ساد الاعتقاد بأن العربية الفصحى هى لهجة قريش التى أصبحت اللغة الرسمية للدولة الإسلامية بعد انتشار الدين الجديد ، جاء أدب الجاهليين مكتوبا بهذه اللغة الفصحى . ولما كان تدوين الأدب الجاهلى لم يتم إلا فى أيام الدولة الأموية فى القرن السابع ، فقد أصبح الأمر ينحصر فى احتمالين لا ثالث لهما ، فإما أن تكون العربية الفصحى ليست هى لغة قريش ، حيث استعملها العرب قبل الإسلام ، وإما أن يكون الشعر الجاهلى المكتوب بالفصحى منحولا مزورا وليس صحيحا أنه من نتاج الجاهليين .

وفضل طه حسين قبول الرواية التى تقول بأن الفصحى هى لغة قريش ، وبالتالى كان لابد له وأن ينكر أصالة الأدب الجاهلى .

ونحن بعد مرور ما يقرب من سبعين عاما على القضية التى أثارها طه حسين ، نجد أن أساتذة الأدب واللغة العربية لا يزالون يصرون أن الفصحى كانت لهجة قريش ، دون دليل أو سند . ومع أنه من الواضح أن اللهجات القديمة التى كانت سائدة قبل الإسلام ، لا تزال قائمة حتى يومنا هذا وإن تغيرت بعض الشيء ، فليس هناك من يستطيع أن يزعم بأن هناك الآن قوما فى الجزيرة العربية أو فى غيرها ، يستخدمون العربية الفصحى فى حديثهم ، ما لم يكونوا قد تعلموها فى المدارس أولا ، وتعرفوا على قواعدها ونحوها وصرفها هناك . فالعربية الفصحى - مثلها فى هذا مثل الأكادية والأرامية واليونانية التى استخدمها هوميروس والقبطية المصرية - إنما هى لغة أدب وكتابة وليست لغة للكلام .

وبينما كان الملوك والأمراء هم الذين قاموا بتوحيد لغة الكتابة فى العالم القديم ، عندما استخدموا الأكادية المسمارية فى رسائلهم ، وبينما أدت حركة التجار إلى نشر اللغة الأرامية التى حلت محلها ، وبينما كان الكهنة المصريون هم الذين أقاموا اللغة القبطية ، فإن شعراء القبائل

العـربيـة هـم الذين أنشـأوا أول لغـة عـربيـة مـوحـدة فى الجـاهليـة ، استعملوها فى نظمهم .

كانت اللغات التى تفرعت عن الأرامية بعد سقوط دولة الفرس - مثل السريانيـة التى استـخدمـهـا المسـيحـيون فى سـورية وبلاد الرافـدين ، والنبطية التى استخدمتها الأقوام العربية فى البتراء - هى المستعملة فى الشمال عند بداية التاريخ الميلادى ، كما سادت اللغة السبئية فى جنوب الجزيرة العربية ، والكتابة الثمودية فى شمالها . وتم العثور عند بداية القرن العشرين على مجموعة من النصوص المكتوبة ، فى وقت كانت فيه الأبجدية السبئية هى السائدة فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، جاءت من الحجاز ، من المنطقة التى كانت مركزا للثموديين عند العلا ، وتبين بعد ذلك وجود عدد كبيـر من هذه الكتـابات موزعـة فى أنحـاء الجزيرة ، وهى تظهـر وجـود لهـجـات لغـوية مـتـعـددة ، وإن أطلق عليـهـا جميعها اسم « ثمودية » .

وهناك عدة خلافات بين هذه الكتابات الثمودية والعربية الفصحى ، فعلى سبيـل المثال لم تكن أداة التعـريـف المستـخدمـة هى « ال » ، وإنما « ها » أو « هن » .

وحدث تطور هام عندما بدأت القبائل العربية فى شمال الجزيرة - منذ

القرن الرابع الميلادى - تستخدم الأبجدية العربية الجديدة التى اخترعها النبطيون ، بدلا من خط المسند السبئى فى كتاباتها . وكانت المنطقة الواقعة فى وسط الجزيرة - بين مناطق الحضارة الجنوبية والشمالية - فى غالبها صحراء تسكنها القبائل غير المستقرة أو تلك التى تقيم فى مناطق الواحات ، حتى انتشر خليط من اللهجات المتقاربة ، وكان ظهور العربية الفصحى فى هذه المنطقة على يد شعرائها . وليست الكتابة موهبة فطرية يدركها الجميع ، وإنما هى فن يحتاج دراسة وتعلم .

ويعتقد بعض الباحثين الحديثين أن الخط الكوفى - وإن سمى بالكوفى - إلا أنه ظهر فى الحجاز أولا ، حيث أن القرآن كتب بهذا الخط فى المدينة قبل بناء الكوفة . وأول ما وصلنا من الكتابات الفصحى كان على شكل نصوص مكتوبة على الحجر ، تحتوى على أسماء الأعلام إلى جانب بضع كلمات قليلة ، مثل تلك التى توضع عادة عند قبر الميت أو على قواعد الأبنية عند إنشائها ، أو المتعلقة بالنذور . وليس لدينا أى كتابات من هذه المرحلة تتعلق بالشعر أو النثر ، بالرغم من شيوع رواية الشعر شفاهة فى تلك الفترة .

كان هناك اختلاف بين الباحثين الإسلاميين الأوائل - منذ البداية - حول طبيعة العربية الفصحى وأصل نشأتها ، وأقدم الروايات العربية

تقول بأن الفصحى تحتوى على عناصر لغوية من لهجات متعددة بينما أصر البعض على أنها كانت لهجة قريش التى تتحدث بها ، وأوضح أنها تتكون من مزيج من عدة لهجات وتحتوى على كلمات مصدرها قبائل وأقوام أخرى .

من هؤلاء « أبو عبيد » الذى قام بتجميع الكلمات المستخدمة فى الفصحى وبين مصدرها فى لهجات القبائل . وهو أبو عبيد القاسم بن سلام - ولد ٧٧٠ أو ٧٧٤م ومات ٨٣٨ م - باحث لغوى كان أبوه مولى قبيلة أزد ، وسافر وهو فى العشرين ليدرس فى الكوفة والبصرة ثم بغداد ، وله عشرون مؤلفا منها ثلاثة تتعلق بأصل اللغة الفصحى ، وهى « غريب المصنَّف » و « غريب القرآن » و « غريب الحديث » وأورد فى غريب المصنف - الذى يعتبر أول قاموس للغة العربية - ١٧٩٩٠ كلمة ، نقلها عنه اللاحقون فى كتاباتهم . كما حفظ لنا اللغويون الإسلاميون - الذين قاموا بتنظيم قواعد العربية الفصحى - العديد من المعلومات التى تبين أن العربية الأولى لم تكن لغة موحدة أو متفقة ، لكنها كانت تتضمن نوعاً من التباين الناتج عن اختلاف اللهجة ، فهناك اختلاف واضح بين لهجات نجد الشرقية ولهجات الحجاز الغربية ، وإن كانت الفصحى - بالشكل الذى وصلت عليه مكتوبة

إلينا تعتبر شرقية في ملامحها .

فالفصحى لغة أدبية مركبة من خليط من لغات الجزيرة العربية شمالها وجنوبها ، شرقها وغربها ، وإن غلب عليها الطابع النجدى نظرا لقيام شعراء نجد بتركيبها . فعلى سبيل المثال هناك كلمات مثل « هل » و « كذلك » و « ان » ، لا تستخدم فى الحديث إلا فى المنطقة الواقعة جنوبى نجد ، بينما الفعل « أراد » لا يستخدمه فى الحديث سوى عدد قليل من الأقوام ، ولا تستخدم نون النسوة إلا بين بعض قبائل نجد الجنوبية . بل إن هناك كلمات دخلت اللغة الفصحى جاءت من خارج الجزيرة العربية ، ومن أكثرها شيوعا كلمة « غد » التى هى من أصل بربرى من شمال أفريقيا . وهناك كلمات فارسية ويونانية - إلى جانب الكلمات التى جاءت من مصر وبلاد الهلال الخصيب - أصبحت جزءا من اللغة الفصحى .

لهذا فالفصحى لغة لابد من تعلمها لمعرفتها والقدرة على استخدامها ، وليست مكتسبة بالفطرة والتربية الاجتماعية كلهجات الحديث ، فكان على من يريد استخدام العربية الفصحى من شعراء الجاهلية ، تعلم هذه اللغة أولا . وكان الشعراء الجدد - عندما يقومون بدور الرواة لكبار الشعراء - يتتلمذون عليهم ويتعلمون منهم ليس فقط

طريقة النظم والقافية ، وإنما قواعد الصياغة واختيار الكلمات . ومن أهم متطلبات مرحلة الرواية التعرف على اللهجات التى تستخدمها مختلف القبائل العربية ، فلن يستطيع الراوى شرح القصائد وتفسيرها لمستمعيه الذين أتوا من جميع نواحى الجزيرة ، إلا إذا تعلم لهجاتهم .

كان للشعراء فى الجاهلية مركز هام فى قبائلهم ، وغالبا ما يكونون هم الكهنة أو القادة لأقوامهم ، وكان لكل شاعر راوٍ يحفظ أشعاره ويصاحبه فى جولاته الأدبية حيث يقوم بتفسير قصائده بعد إلقائها ، مما يدل على أن المستمعين لم يكن بمقدورهم فهم الشعر فهما كاملا بدون تدخل الراوى بشرحه وتفسيره .

وهكذا فإنه فى العصر الجاهلى كان الشعر يحتاج إلى من يفسره للسامعين . وكان غالبية الشعراء الجدد يقومون بدور الرواة فى البداية لكبار الشعراء حتى يتعلموا منهم فن الشعر ، قبل أن ينظموا أشعارهم الخاصة بهم . كان الشعراء بمثابة معلمين للأجيال التالية من تلاميذهم ، فكان « زهير » راو لشعر خاله بشامة بن الغدير ، وكذلك لأوس بن حجر ، ثم أصبح الحطيئة راويةً لشعر زهير بعد ذلك .

وليس صحيحا أن لهجة قريش سادت بين العرب نتيجة لقيام سوق عكاظ الأدبى فى مكة ، فلم يكن لقريش فى الجاهلية أى من الشعراء

الفحول من رواة المعلقات ، فهؤلاء جميعا جاءوا من نجد ، من قيس وتميم وأسد ثم هذيل وكنانه وطيئ ، وكانت تميم - التى سيطرت على الحركة الشعرية عند مجىء الإسلام - قبيلة كبيرة تمتد أرضها لتشمل جزءا كبيرا من الساحل الشرقى للجزيرة ، فتمتد حدودها إلى البحرين فى الشرق واليمامة فى الجنوب وشواطىء الفرات فى الشمال ، يفصلهم عن الحجاز فى الغرب قبائل أسد وغطفان ، وكانت على اتصال بأسواق الحجر والإحساء والجرعا إلى جانب سوق مكة . فإنه وإن كان لكل قبيلة شاعرها الذى يمثلها فى الأسواق والمواسم ، إلا أن أشهر شعراء الجاهلية هم أصحاب ما اصطلح على تسميتهم برواة المعلقات السبع ، وهم امرؤ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم وعنترة والحارث بن حلزة ، ويضيف البعض إليهم ثلاثة شعراء آخرين هم النابغة والأعشى وعبيد بن الأبرص الأسدى .

وينقسم شمال الجزيرة إلى قسمين فى الغرب والشرق ، فبينما يمتد الحجاز مع سلسلة الجبال فى الغرب - بحذاء البحر الأحمر - من العقبة فى الشمال إلى عسير ونجران عند حدود اليمن فى الجنوب ، فإن هضبة نجد تمتد بحذاء الخليج فى الشرق من جبل شمر شمالا إلى الربع الخالى جنوبا .

وبينما اشتمل الحجاز على عدة مدن هامة مثل تيماء والعلا ويثرب

ومكة والطائف ونجران ، فإن نجد كانت تحتوى على عدد من القبائل البدوية الهامة ، مثل قبائل غطفان الذين تمتد أرضهم من حدود يثرب إلى قلب نجد ، ومنها قبيلة عبس - وكان شاعرهم عنترة - وقبيلة ذبيان ، وشاعرهم النابغة ، وقبيلة مزينة وكان شاعرهم زهير ، أما قبائل هوازن فكانت تسكن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من غطفان ، والتى تمتد من شرقى مكة إلى اليمامة فى قلب نجد ، ومنهم قبائل عامر وكان شاعرهم لبيد . وقبيلة أسد فى شمال شرقى نجد وجنوب جبل شمر ، كان أمرؤ القيس بن ملك أسد ومنهم كذلك كان الشاعر عبيد بن الأبرص ، وقبائل كندة التى سكنت ما بين أسد فى الشمال واليمن فى الجنوب . وقبائل بكر فى شمال شرقى الجزيرة ، ومن شعرائهم طرفة والأعشى والحارث بن حلزة ، وتغلب مرتبطة ببكر كلتاهما فى شمال نجد عند الخليج وحدود العراق ، وشاعرهم عمرو بن كلثوم .

وإلى جانب الشعر ظهر النثر كذلك فى العصر الجاهلى ، وكان النثر مسجوعا ، ومن أقدم أنواع النثر الجاهلى كانت الأمثال ، والتى عادة ما تأتى على شكل الوصايا التى يعطيها الحكماء من الرجال ، وكانت هذه الحكم تدون فى مجموعة تسمى « مجلة » وأقدم أنواع النثر العربى هى الخطبة ، والتى تم جمعها فى كتب مثل « الأغانى » و « العقد الفريد » و « الكامل » للمبرّد ، وفى كتابات الجاحظ وابن قتيبة . وكان للخطيب

مركز هام فى قبيلته وإن كان أقل شأنا من الشاعر .

كما كان القضاة يستخدمون النثر المسجوع كذلك عند إصدار أحكامهم ، وكان الكهان غالبا ما يقومون بدور القضاة ، وبينما كانت المسائل الجنائية وما يتعلق بها من عقوبات من اختصاص شيخ القبيلة ، إلا أن الكهان كانوا يتولون الحكم - أو التحكيم - فى المسائل المدنية والخلافات بين الأشخاص أو القبائل ، الذين يحتكمون إليهم .

وكان هؤلاء يعلنون أحكامهم على طريقة النثر المسجوع بأسلوب رمزى مبهم ، فإلى جانب رجوع الكهان إلى الأحكام السابقة وتطبيق أحكامها على الحالات الجديدة المعروضة عليهم ، فهم كانوا يلجأون كذلك إلى السحر والتنبؤ عن طريق ما يدّعونه من استبيان لأحكام المعبودات القديمة فى الحالات المعروضة عليهم ، وهو ما عرف بالطاغوت ، أى التحدث باسم الأصنام . وعند اختيار المحكم كان المتخاصمان يقومان أولا باختيار قدرته على معرفة المجهول عن طريق سؤاله عما أحضروه مخبأ معهم . وقد ذكر سلامة العذرى فى « المنمق » بعضا من سجع الكهان : « أحلف بالنور والقمر ، والسنا والدهر ، والرياح والفطر ، لقد خبأتم لى جثة نسر ، فى عكم من شعر ، مع الفتى من بنى نصر » .

وهكذا نرى أن طه حسين كان محقا فى إثارة مسألة الشعر الجاهلى وعلاقته بالعربية الفصحى ، وكان السبب الذى جعله ينكر صحة الأدب الجاهلى هو قبوله لرواية بعض الكتاب السابقين بأن هذه اللغة لم تكن سوى لهجة قريش فى الحديث . ولقد تبين لنا حقيقة الاختلافات التى كانت ، ولا تزال ـ قائمة بين لهجات الجزيرة العربية ، وأن اللغة الفصحى وإن اقتربت من كل هذه اللهجات ، إلا أنها تشكل كيانا خاصا ذا طبيعة أدبية أنتجه شعراء الجاهلية واستخدموه فى شعرهم .

لغة سيناء

ظلت رمال سيناء تكتم فى بطنها أسرار آلاف السنين من تاريخ مصر ... إلى أن وقعت شبه الجزيرة تحت الاحتلال الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧ . ومنذ ذلك الوقت وإلى ١٩٨٢ قامت مجموعة من خبراء الآثار الإسرائيليين بالتنقيب فى كل شبر من أرض سيناء ، أملا فى الحصول على أى دليل أثرى يؤكد رواية الكتب اليهودية لتاريخ بنى إسرائيل . وبينما فشل الخبراء الإسرائيليون فى العثور على أى بقايا إسرائيلية فى سيناء ، إلا أنهم قد وجدوا آلاف القطع الأثرية والمئات من المواقع القديمة التى سوف تساعد دراستها ، على حل الألغاز التى طالما شغلت بال الباحثين مئات من السنين .

وكان وفد من هيئة الآثار المصرية برئاسة الدكتور عبد الحليم نور الدين الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار ، وعضوية الدكتور محمد عبد المقصود مدير عام آثار شمال سيناء ، والدكتور محمد صالح مدير المتحف المصرى بالقاهرة ... قد قام بزيارة إسرائيل لتسلم الدفعة الأخيرة

من آثار سيناء ، يوم الخميس ٢٩ ديسمبر الماضى ، تنفيذا لاتفاقية توصلت إليها الحكومتان المصرية والإسرائيلية عام ١٩٩٢ .

تنتمى الآثار العائدة إلى مراحل تاريخية مختلفة ، منذ عصور ما قبل التاريخ - أى تلك التى تسبق ظهور الكتابة عند نهاية الألف الرابع قبل الميلاد - وخلال العصور الفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية والعربية . وهناك عدد من الاكتشافات الهامة التى تحققت فى منطقة النوايس التى تقع فى منتصف الطريق بين سانت كاترين ونويبع ، أهمها العثور على مقابر تعود إلى ٦ آلاف عام أى إلى عصر ما قبل التاريخ . ومجموعة من القطع الزجاجية والعملات النقدية وكذلك عدد من القلاع القديمة التى كانت تقوم بحماية الطريق الشمالى الذى يربط مصر بفلسطين . كما عثر فى منطقة الفلوسيات فى الجانب الشرقى لبحيرة بردويل على بقايا كنيسة تبلغ أبعادها ٢٠ × ٣٣ مترا ، وسط المياه . وتبين أنها ترجع إلى العصر البيزنطى خلال القرن الميلادى الخامس . وكذلك على ٧٠ ديرا فى المنطقة الجبلية المحيطة بسانت كاترين ، وكان الاعتقاد السائد هو إن بها ديرا واحدا .

ظهر من هذه الكشوفات الأثرية أن شبه جزيرة سيناء كانت معمورة

بالسكان منذ ٢٩ ألف عام . فقد اكتشف البروفيسور أوفير بار يوسف - وهو أستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية وواحد من أشهر الأثريين فى العالم المتخصصين فى مجال آثار ما قبل التاريخ - مئات من المواقع الأثرية التى ترجع إلى تلك العصور النائية .

كما ثبت وجود صلات قوية بين سكان سيناء وباقى المناطق المصرية فى شرق الدلتا والصعيد لآلاف السنين قبل بداية العصور التاريخية وتوحيد الأرضين ، فى وقت كانت فيه أرض الوجه البحرى الخصبة ما تزال مغطاة بالمستنقعات والأحراش . وتبين أنه فى العصور التاريخية الأولى كانت مصر تمتد لتشمل جنوب أرض فلسطين وشمال الجزيرة العربية ، وهذه هى المنطقة التى ورد ذكرها فى القرآن والتوراة على أنها أرض مدين التى كانت تشمل سيناء وشمال الجزيرة العربية وجنوب فلسطين . وقد عثر الأثريون الإسرائيليون على طريق يمتد من سيناء ليصل حتى البحر الميت وبه نقوش وبقايا مصرية . ولكنها انفصلت تدريجيا بعد ذلك ، بسبب الصعوبة التى واجهتها الحكومة المركزية فى حماية تلك الأماكن النائية .

ومع اختفاء المستنقعات من أرض الدلتا الخصبة منذ بداية الألف الثانى قبل الميلاد هاجر عدد كبير من سكان سيناء للإقامة بها . ومنذ

ذلك التاريخ قلت أهمية سيناء وازدادت أهمية الدلتا التى أصبحت المصدر الرئيسى للإنتاج الزراعى فى مصر ، إلا أنه منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، عندما بدأت الإمبراطورية المصرية فى أيام الأسرة الثامنة عشر ، تم إقامة مواقع حربية محصنة على طول طريق حورس بين القنطرة وغزة ، والذى أصبح خط الاتصال الرئيسى بين مصر وباقى بلدان الإمبراطورية فى الشام . وبعد جلاء الإسرائيليين عن سيناء ، قامت هيئة الآثار المصرية بأعمال كشفية عام ١٩٨٨ بمنطقة تل الحبوة بشمال سيناء تحت إشراف الدكتور محمد عبد المقصود ، المدير الحالى لآثار شمال سيناء . وعثر عبد المقصود على أهم كشف أثرى تم فى سيناء ... عندما أزاح التراب عن بقايا مدينة زارو المحصنة فى موقع تل الحبوة شمال شرقى القنطرة شرق . وكانت هذه المدينة قد أصبحت هى العاصمة الحربية للمصريين منذ عصر تحتمس الثالث ، أعظم ملوك مصر القديمة .

وكانت بعثات الآثار الأجنبية قد فشلت فى العثور على مدينة زارو منذ بداية أعمال الحفر فى مصر فى منتصف القرن الماضى .

وقد أثير موضوع الرسوم ذات الطابع اليهودى التى وجدت منقوشة فوق بعض المسارج . وبينما ذكرت أخبار اليوم ـ على لسان الدكتور عبد

المقصود ـ أن هذه المسارج التى يبلغ عددها ٣٥ قد تم العثور عليها فى منطقة سرابيط الخادم بجنوب سيناء ، ذكر التقرير الذى نشره اليعازر أورين ـ الأستاذ بجامعة بن جوريون ـ فى الجزء الرابع من انسيكلوبيديا الحفريات بالأراضى المقدسة المنشور عام ١٩٩٤ ، أن هذه المسارج ـ أو المنورات كما يسميها اليهود ـ قد تم العثور عليها فى منطقة قصرويت التى تقع بين القنطرة ودير العبد .

وعلى كل حال فإن هذه المسارج ترجع للعصر المسيحى وليس لها علاقة ببنى إسرائيل ، ولا بفترة الخروج التى تسبقها بحوالى عشرين قرنا .

كما قيل أنه تم العثور على كتابات عبرية فى موقع كونتيلة عجرود ـ على الطريق الذى يصل طابا على خليج السويس برفح على البحر المتوسط ـ عند نقطة الحدود على بعد ٥ كيلو مترات من أرض فلسطين . وكذلك فى موقع عين القديرات القريب منه ، والذى يعتقد البعض أنه أحد المواقع التى لها صلة بخروج بنى إسرائيل من مصر . وبحسب ما صرح به الدكتور عبد المقصود فإن الأثريين الإسرائيليين يربطون بين هذه الكتابات وبين إقامة بنى إسرائيل فى سيناء .

ولما كان المرجع الآن أن عصر موسى كان فى النصف الثانى من القرن

١٤ ق . م ، كما أن تسلل بنى إسرائيل إلى جنوب فلسطين قد تم فى أواخر هذا القرن ، يصبح من المستبعد وجود أية كتابات إسرائيلية فى سيناء باللغة العبرية . ذلك أن اللغة العبرية نفسها - والتى ما هى إلا لغة الكلام الكنعانية القديمة تم كتابتها بحروف أرامية سورية - لم تظهر إلا منذ القرن العاشر السابق على العصر المسيحى ، أى بعد أربعة قرون من عصر موسى وخروج بنى إسرائيل من مصر .

وبحسب الصور التى شاهدتها منشورة للكتابة التى عثر عليها الإسرائيليون فى سيناء ، فإنها ليست عبرية وإنما هى ما تم التعارف على تسميتها « بروتو سينياتيك » . فقد كان الأثرى البريطانى فليندرز بيترى قد عثر فى بداية هذا القرن - بمنطقة سرابيط الخادم بجنوب سيناء - على نوع من الكتابة يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ويختلف فى أبجديته عن الكتابة المصرية ، يعتقد البعض أنه أصل اللغات الفينيقية والأرامية والعبرية التى ظهرت بعد ذلك .

وكانت مفاجأة للأثريين الإسرائيليين عندما عثروا فى سيناء على بعض النصوص التى جاء بها ذكر الإله « يهوه » . وتبين من هذه الكتابات أن إله العبرانيين لم يكن وحيدا وإنما كانت له زوجة . وكانت

البقايا الأثرية التى سبق العثور عليها فى المعبد اليهودى بجزيرة فيلة - مقابل أسوان- قد أظهرت وجود معبودتين من الإناث إلى جانب « يهوه » هما « أشام نثيل » و « أنات بثيل » .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن اعتقادات بنى إسرائيل قبل ظهور موسى ، ويبدو الآن من نتائج الحفريات تعدد الآلهة بين القبائل العبرانية . وتأكد هذا الموضوع عندما عثرت بعثة جامعة هارفارد الأمريكية فى يونيو ١٩٩٠ بقيادة الدكتور لورانس ستاجر على تمثال صغير للعجل الذى عبده بنو إسرائيل فى سيناء ، فى بقايا معبد وثنى بمدينة عسقلان . وتبين أن هذا العجل - الذى صنع من الفضة - يرجع إلى القرن السادس عشر ق . م . ، أى قرنين قبل عصر موسى .